البيان النبوي في حديث الغلام والراهب والساحر

" دراسة بلاغية تحليلية "

د / طلعت عبد الله بسيوني أبو حلوة

مدرس في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

جامعة الأزهر/ فرع دسوق

(بسم الله الرحمن الرحيم)

المقـــــــدمـــــة

الحمد لله الذي بحمده يُسْتَفْتح كلّ كتاب ، وبذكره يُصَدَّر كــلّ خطــاب ، نحمــده – سبحانه وتعالى – بجميع محامده حَمْدَ الشاكرين على عظيم فضله وجليل نعمائه ، كمــا نحمده بجميع محامده على جميل أفضاله وعوائده ، ونشكره على ســابغ عطائــه شُــكْرَ المستزيدين لآلائه ، والصلاة والسلام على من أُوْتِي جوامــع الكلــم ، وأفــصح العــرب والعجم ، ورسول خير الأمم ، وسيد المرسلين ، وإمام النبيين ، وقائد الغُرّ المُحَجَّلِــيْن ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبـــــعـــــد

فالبيان النبوي – وهو المصدر الثاني للتشريع – يأتي في المرتبــة التاليــة للبيــان القرآني المعجز ، وفي المرتبة الأولى للبيان البشري ، وهو بيــان متنــوع الأســاليب ، متعدد الأغراض ، بديع الإشارات ، بليغ العبارات ، مختار الكلمات ، واضــح الــسمات ، بَيِّن القسمات ، فائق اللفظ ، رائق المعنى ، متفوق على كــل بيان ، مُتَرَبِّع علــى ذروة البيان البشري ، ولا غرو في ذلك ، فبلاغته – ﷺ – هي " البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها ، و حَسَرَتْ العقول دون غايتها ، لم تُــصْنَع وهــي مــن الإحكــام كأنهــا مصنوعة ، ولم يُتَكَلَّف لها وهي على السهولة بديعة ممنوعة " [1] .

والإنسان بحكم فطرته لديه ميل شديد إلى القصة وتعلُّق قــوي بهــا ، وهــذا شــيء غريزيّ في كل إنسان ؛ لأن النفس الإنسانية مطبوعة على حــب الاســتطلاع ، وترقــب النهايات ، واستعظام المفاجآت ، واستلهام العبر والعظات ؛ ولــذا اتخذها النبي – ﷺ – أحد أساليب الدعوة والهداية والإرشاد ، والقصة الهادفة – وكل القصص النبويّ هــادف – هي التي تؤثر في النفوس ، وتقنع العقول ، وتمتع العواطف ، وتحمل في طياتها العبر والعظات .

ومن يتأمل البيان النبويّ يجد أنه قد اشتمل على العديد من القصص التي تقص علينا الكثير من أخبار الأمم السابقة ؛ لنجني منها الثمرة ، ونأخذ العبرة ، ونستلهم العظــة ،

[1] إعجاز القرآن / ٢٢٧ / للرافعي / تحقيق : د / درويش الجويدي / المكتبة العصرية / صيدا / بيروت / ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .

وبينما أنا أطالع في هذا النوع من القصص إذ وقعت عيني على هذا الحديث الذي يحكي لنا قصة الملك والغلام والراهب والساحر ، فأخذت أتأمل وأسأل نفسي لِمَ لمْ يحظ هذا الحديث بدراسة بلاغية تحليلية تكشف وجوه بلاغته ، وتبرز ما انطوى عليه من أسرار ولطائف بلاغية ، ورموز وفوائد بيانية أسهمت في بلاغة الأسلوب شكلًا ومضمونًا ؟

هـــــــــــذا وقد دفعني إلى بحث هذا الموضوع عدة دوافع منها :

١- ما وجدته في هذه القصة في هذا الحديث من الكثير من الأسرار البلاغية ، واللطائف البيانية ، والحكم العالية ، والإشارات الغزيرة السامية التي تستثير القارئ ، وتلفت نظر المتلقي ، وتؤثر فيه تأثيرًا قويًا بليغًا ، وتمتع الوجدان ، وتأسر الأذهان ، وتشنِّف الآذان ، وتستهوي الجَنان .

٢- استثارة ولَفْت نظر الباحثين إلى دراسة هذا النوع من الأحاديث دراسة تحليلية نظرًا لما يتضمنه من أخبار صادقة ، وحقائق واقعية ، وبدائع علمية ، وأساليب تربوية ، وقِيَم أخلاقية ، هذا بالإضافة إلى أن " التصوير بالقصة من أجمل أساليب التصوير وأعمقها أثرًا في النفس ؛ ذلك أن النفس البشرية ميّالة لسماع القصة تجد الأنس والمتعة في متابعة أحداثها ، وقد تجد فيها ما تريده أو تحياه ، فيترك ذلك فيها من التأثير والاستمتاع ما لا تبلغه وسيلة أخرى " [١] .

٣- أن أغلب الشروح والدراسات التي تناولت هذا الحديث إنما تناولته من حيث الناحية الوعظية كنموذج رائع للصبر والثبات أمام قُوَى البغي والعدوان ، اللهمّ إلا بعض الإشارات القليلة المقتضبة التي وجدتها عند بعض الشرّاح من أمثال الأبيّ والسنوسيّ وابن عِلَّان وغيرهم ، ولم أعثر له على دراسة بلاغية مستقلة ومستفيضة تكشف ما في هذا الحديث من أسرار ولطائف وفوائد.

٤- ما وجدته في أسلوب البيان النبوي من سمات الأسلوب الجمالية المتجددة التي تكسب النص الخلود ، وتكسوه جمالًا وطلاوة ، هذا بالإضافة إلى جمال التأليف ، وحسن الوصف ، وبديع الرصف ، وجودة السبك ، وسلامة النظم ، وغير ذلك كثير وكثير مما

---

[١] التصوير الفني في الحديث النبوي / ٤٩٨ / د / محمد بن لطفي الصبّاغ / المكتب الإسلامي / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .

يثير الإعجاب ، ويبدو لصاحب البصر النافذ والبصيرة السويّة بين كل حين وآخر ، ولله درّ أبي نواس حيث قال :

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا ... إذا ما زِدْتَهُ نَظَرًا [1]

٥- أن القصة في هذا الحديث أفصحت لنا عما كان يواجهه الأخيار الأبرار من ألوان الانتقام والبطش علي أيدي الكفار الأشرار الذين استعبدوا الناس بالليل والنهار وحالوا بينهم وبين الوصول إلى عبادة الواحد القهار ، وأبانت لنا أيضًا عن مدى صبر وجلد هؤلاء المؤمنين على ظلم وعدوان أولئك الطغاة الظالمين .

هذا ، وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي في مقدمة وتمهيد وسبعة مباحث وخاتمة .

أما المقدمة فقد بيّنت فيها أهمية هذا الموضوع ودوافع اختياره وأهم الصعوبات التي واجهتني أثناء دراسته .

وأما التمهيد فقد أوردت فيه نص الحديث برواية الإمام مسلم ، وعَرَّفْت فيه أيضًا براوي الحديث ، وتناولت فيه كذلك عناصر القصة في هذا الحديث .

وأما المباحث السبعة فهي كالتالي :

المبحث الأول : الملك مع ساحره ، والغلام بين الساحر والراهب .

المبحث الثاني : الغلام بين ضلال وكفر الساحر وهدى وإيمان الراهب .

المبحث الثالث : مداواةُ الغلامِ جليسَ الملكِ ودلالتُه على الراهب .

المبحث الرابع : فتكُ الملكِ بكلٍّ من الراهب والجليس .

المبحث الخامس : محاولات الملك الفتك بالغلام والتخلص منه .

المبحث السادس : التضحية من أجل العقيدة والدعوة إلى الدين .

المبحث السابع : إيمان الناس بالله – عزّ وجلّ – وانتقام الملك منهم .

ولقد تناولت كل واحد من هذه المباحث السبعة على حدة تناولًا موضوعيًّا بلاغيًا بالدراسة والتحليل ، فوقفت مع كل كلمة أو جملة أو أسلوب لإبراز الدلالات ، وكَشْف الوجوه البلاغية ، و بيان الأسرار والرموز البيانية ، وإيضاح الإشارات واللطائف

---

[1] ديوان أبي نواس ٢ / ٢٩ / بحر الوافر / تحقيق / ايفالد فاغنر / فرانز شتاينر / فيسبادن / ألمانيا / ١٣٢٩ هـ - ١٩٧٢ .

والفوائد التي يوحي بها التعبير ، وينم عنها الأسلوب ، وتناولت كذلك علاقة الجملة بغيرها فصلًا ووصلًا ، وبيان الأسرار والفوائد التي انطوى عليها هذا الفصل أو ذاك الوصل ، ووقفت كذلك مع أسلوب التعبير وما يوحي به ويشير إليه من خطرات النفس وخوافيها ، و خصائص أحوالها وملامحها الروحية ، إذ الأنماط التعبيرية والمظاهر الأسلوبية ما هي إلا استجابة لهذه الأحوال وتلك الخطرات .

هذا بالإضافة إلى ذكر وإيضاح ما اشتمل عليه ذلك الحديث ، وأشار إليه أسلوبه من عبر وعظات وفوائد يجب أن يتحلى بها الإنسان المؤمن عندما يواجه البلاء ولا سيما إذا كان ذلك في أمر عقيدته التي هي أحب إليه من نفسه .

وأما الخاتمة فقد ذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات التي أسفر عنها هذا البحث .

وبعد هذا الجهد – وهو جهد المقلّ – فإني لا أدّعي ولا أزعم أني استخرجت كل الأسرار والفوائد التي اشتمل عليها هذا الحديث ، وانطوى أسلوبه عليها ، ولكن هذا ما يسره الله – سبحانه وتعالى – لي ، وامتنّ عليّ به ، فالبيان النبوي منبع ثَرّ لا ينضب أبدًا ، وكلما زاده الإنسان نظرًا، وأعاد فيه التأمل افترّ له عن الجواهر والدُّرر ، وهذا شأن البيان الخالد ، وحسبي هنا حسن النية وصدق العزيمة ، وكفى بذلك شافعًا ، وحسبي كذلك أني اجتهدت ، وأدعو الله – العليّ القدير – ألا يحرمني ثواب المجتهد أصاب أو أخطأ ، فالكمال لا يكون إلا لله وحده ، والعصمة لا تكون إلا لنبي ، والسلامةُ من الخَطَر أمرٌ يَعِزَ على البشر ، سَتَرَ اللهُ على مَنْ سَتَرَ ، وغَفَرَ لمن غَفَرَ ، ولله درّ أبي القاسم الحريري حيث قال :

وإنْ تَجِدْ عَيْبًا فَسُدَّ الخَلَلا ... فجَلَّ مَنْ لا فِيْهِ عَيْبٌ وعَلا (١)

كما أسأله – تبارك وتعالى – أن يرزق هذا العمل القبول ، وأن ينفع به ، وأن يجعله في ميزان حسناتي وحسنات من يقرؤه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَنْ أتى اللهَ – عزّ وجلّ – بقلب سليم .

---

(١) مُلْحة الإعراب / ٧٢ / بحر الرجز / مطبعة السعادة / مصر / الطبعة الأولى / ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م .

التمهيد :

ويشتمل على ثلاث نقاط هي :

أولًا – نـــص الحديث برواية الإمام مسلم " :

حَدَّثَنَا هَدَّابُ بْنُ خَالِد ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِـــي لَيْلَى ، عَنْ صُهَيْبٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ﷺ – قَالَ : " كَانَ مَلِكٌ فِـيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ ، فَلَمَّا كَبِرَ ، قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ ، فَابْعَثْ إِلَـيَّ غُلَامًـا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ – إِذَا سَلَكَ – رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْـهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا أَتَـى الـسَّاحِرَ ضَرَبَهُ ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ ، فَقُلْ: حَبَـسَنِي أَهْلِـي ، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ : حَبَسَنِي السَّاحِرُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَـسَتِ النَّاسَ ، فَقَالَ : الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ ، حَتَّـى يَمْـضِيَ النَّـاسُ ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا ، وَمَضَى النَّاسُ ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ : أَيْ بُنَـيَّ أَنْـتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي ، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى ، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَـيَّ ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ ، فَـسَمِعَ جَلِـيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ ، فَقَالَ : مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ ، إِنْ أَنْتَ شَـفَيْتَنِي ، فَقَالَ : إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ ، فَـآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَـنْ رَدَّ عَلَيْـكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ : رَبِّي، قَالَ : وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ : رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَـزَلْ يُعَذِّبُـهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا ، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ ، فَأَخَذَهُ فَلَـمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ ، فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَـأَبَى ، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِـقَّاهُ ، ثُـمَّ جِـيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ

أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وكَذَا ، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَـهُ ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِـيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَرَجَفَ بِهِمِ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ قَالَ : كَفَانِيهِمُ اللهُ ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : اذْهَبُوا بِـهِ فَـاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ ، وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ ، فَقَالَ : اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ : إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَـا آمُرُكَ بِهِ ، قَالَ: وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، ثُمَّ قُلْ : بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ ، ثُـمَّ ارْمِنِي ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِـذْعٍ ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، ثُمَّ قَالَ : بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ ، فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيـلَ لَـهُ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ ؟ قَدْ – وَاللهِ – نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ . فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِـي أَفْوَاهِ السِّكَكِ ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ ، وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَـا ، أَوْ قِيلَ لَهُ : اقْتَحِمْ ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا ، فَقَالَ لَهَا الْغُـلَامُ : يَا أُمَّهْ ، اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ " [1] .

---

[1] صحيح مسلم / كتاب الزهد والرقائق / باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام / رقم : ٣٠٠٥ / ٤ /٢٢٩٩ / مسلم بن الحجاج النيسابوري / تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي / بيروت / بدون تاريخ ، والحديث موجود في تحفة الأحوذي / كتاب التفسير / باب تفسير سورة البروج / رقم : ٣٣٩٨ / ٩ / ٢٦٠ ـ ٢٦٥ / لمحمد بن عبد الرحمن الأحوذي / تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان / دار الفكر / بيروت / بدون تاريخ ، السنن الكبرى / كتاب التفسير / تفسير سورة البروج / رقم : ١١٥٩٧ / ١٠ / ٣٢٩ – ٣٣١ / للنسائي / تحقيق : شعيب الأرنؤوط / مؤسسة الرسالة / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م ، صحيح ابن حبان / كتاب الرقائق / باب الأدعية / ذكر البيان بأن المرء إذا دعا الله – عز وعلا – بنية صالحة وعمل مخلص قد يستجاب له دعاؤه ، وإن كان الشيء المسئول معجزة / رقم : ٨٧٣ / ٣ / ١٥٤ / لابن حبان / تحقيق شعيب الأرنؤوط / مؤسسة الرسالة / بيروت / الطبعة الثانية / ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م . وذلك مع اختلاف في بعض الألفاظ .

ثانيـــًا - التعريف براوي الحديث :

أ – اسمه ونسبه : هو صهيب بن سنان بن مالك ، ويقال : خالد بن عمرو بن عقيل ، ويقال : طفيل بن عامر بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن أسلم بن أوس بن زيد بن مـــــناة بن النمر بن ساقط النَّمَريّ [١] ، ويروى أن اسمه كان عميرة فسماه الروم صهيبًا بعد سَبْيهم له [٢] ، وكنيته : أبو يحيى [٣] .

ب – اسم أمّه : سلمى بنت قعيد بن مهيص بن خزاعي بن مازن التميمية [٤] .

ج – مولده : وُلِدَ صهيب سنة ٣٢ ق ه / ٥٩٢ م في أرض الموصل على شط الفرات مما يلي الجزيرة والموصل [٥] .

د – صفته : كان رجلًا أحمر شديد الحمرة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، وهـــو إلـــى القصر أقرب ، وكان كثير شعر الرأس ، وكان يخضب بالحِنَّاء [٦] .

ه – نشأته : كـــان أبوه سنان بن مالك عاملًا لكسرى في الموصل بالعراق ، ويقـــال : كانوا في قرية على وسط الفرات مما يلي الجزيرة والموصل ، فأغارت الـــروم علـــيهم ، فسبت صهيبًا وهو غلام صغير ، فنشأ صهيب بين الروم فصار أَلْكَن ، ثم ابتاعته مـــنهم قبيلة كلب ، ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان القرشي منهم فأعتقه ، فأقـــام مـــعه بمكة إلى أن بُعِثَ النبي محـــــمد – ﷺ – فأسلم [٧] .

و – إسلامه : أسلم مبكرًا هو وعمار بن ياسر في يوم واحد عندما التقيـــا عنـــد دار الأرقم بن أبي الأرقم يريدان

---

[١] الإصابة ٣ / ٣٦٤ / لابن حجر / تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد عوض / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٥ هـ .

[٢] السابق / نفس الجزء والصفحة .

[٣] الاستيعاب ٢ / ٧٢٨ / لابن عبد البر / تحقيق : علي محمد البجاوي / دار الجيل / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م ، أسد الغابة ٣ / ٣٨ .

[٤] أسد الغابة ٣ / ٣٨ / لابن الأثير / تحقيق : علي محمد عوض ، عادل أحمد عبد الموجود / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .

[٥] الأعلام ٣ / ٢١٠ / للزركلي / دار العلم للملايين / الطبعة الخامسة عشرة / ٢٠٠٢ م .

[٦] صفة الصفوة ١/ ١٦٢ / لابن الجوزي / تحقيق : أحمد علي / دار الحديث / القاهرة / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م ، أسد الغابة ٣ / ٣٨ .

[٧] الاستيعاب ٣ / ٧٢٧ ، أسد الغابة ٣ / ٣٨ ، الإصابة ٣ / ٣٦٤ ، الأعلام ٣ / ٢١٠ .

سماع النبي محمد ﷺ ، وكان إسلامهما بعد إسلام بضعة وثلاثين رجلًا ، وحسن إسلامه ، وشهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ [1] .

ز – هجرته : حينما أراد صهيب أن يهاجر من مكة إلى المدينة تبعة نفر من قريش ، وأرادوا أن يحولوا بينه وبين الهجرة ، فدلهم على ماله في مقابل أن يخلوا سبيله ، وقدم المدينة وأخبر النبي – ﷺ –

بما حدث ، فقال له : " أَبا يَحْيَى رَبِحَ البَيْعُ " [2] .

ح – وفاته : توفي في المدينة المنورة في شهر شوال سنة ٣٨ ه ، وقيل : ٣٩ ه ، ودفن بالبقيع ، وعمره آنذاك ٧٠ سنة ، وقيل : ٧٣ [3] .

ثالثًا - عناصر القصة في هذا الحديث النبوي : [4]

١- الفكرة : هي تصوير الصراع بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والاستقامة والانحراف ، والإيمان والكفر ، وفوز الحق والخير على الباطل والشر ، وانتصار الاستقامة على الانحراف ، وغلبة الإيمان على الكفر، مع تقديم الفداء من أجل الحصول على الفوز وتحقيق الانتصار .

٢- الهدف : هو تثبيت وترسيخ الإيمان في النفوس ، وتزويدها بالصبر الثقة والاطمئنان بالله .

٣- الأحداث : من ينظر في هذا الحديث يجد أن أحداث القصة جاءت متوالية ومتتابعة غير معقدة ، تبدو في شكل لقطات سريعة شائقة واضحة التسلسل ، ليس فيها فجوات ، وتجدد فيها العقد والحلول ، وتنتقل من عجيب إلى أعجب ، وهكذا يتسلسل الحدث ، ويتشابك سير الأحداث ، ويترابط ترابط العلة والمعلول ، ويتتابع على أساس من قانون الأسباب والنتائج .

---

[1] الاستيعاب ٣ / ٧٢٨ ، أسد الغابة ٣ / ٣٨ ، الإصابة ٣ / ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

[2] الإصابة ٣ / ٣٦٥ ، الإعلام ٣ / ٢١٠ ، والحديث في المستدرك على الصحيحين / كتاب معرفة الصحابة / باب ذكر مناقب صهيب بن سنان مولى رسول الله ﷺ / رقم : ٥٧٠٠ / ٣ / ٤٥٠ / للحاكم النيسابوري / تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م .

[3] الاستيعاب ٣ / ٢١٠ ، أسد الغابة ٣ / ٣٨ .

[4] ينظر في ذلك : الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية / ٤٦٣ – ٤٦٦ / د / كمال عز الدين / دار اقرأ / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤٠٤ – ١٩٨٤ م .

٤- العقدة والحل : تتجدد فيها العقد والحلول ، ولكن العقد فيها لا تصل إلى حد الغموض البالغ ، فيستطيع المتلقي أن يتوقع نهايتها عن قرب .

٥- الزمان : قد حدثت هذه القصة في عهد بني إسرائيل ، في الفترة بين نبيي الله عيسى ومحمد -٨- قبل مبعث النبي محمد - ﷺ - بأربعين سنة [١]. وذكر المباركفوري أنها في سنة ٥٢٣ م [٢] .

٦- المكان : يروى أنها وقعت في نجران باليمن ، وهي بأوسط أرض العرب في ذلك الزمان [٣] .

٧- الحوار : لقد اشتملت هذه القصة على عدة مقاطع مُركَّزَة وحوارية ، والحوار فيها قصير ومركّز ودالّ ومعبِّر ليس فيه اضطراب ولا حشو ، يتسم بالحيوية واللباقة والتنقل السريع في تسلسل الأحداث والمشاهد المليئة بالنشاط والحركة التي يبعثها ذلك التضاد في أهداف الشخصيات وسلوكها . الأمر الذي يساعد المتلقي على تتبع ومعرفة ما قد يسفر عنه هذا الحوار المشترك .

٨- الأشخاص : ١- مَلِك . ٢- ساحر . ٣- جليس الملك . ٤- راهب . ٥- غلام وهو بطل القصة . ٦ – ألأصحاب . ٧ – جمهور . ٨ – صانعو الأخدود . ٩ – امرأة وطفلها . ١٠ – الدابة ، وهي شخصية حيوانية . ونلحظ هنا أن النبي – ﷺ – لم يذكر اسم أي شخص من أشخاص هذه القصة ؛ لأن الأشخاص هنا لم تقصد بذاتها ، وإنما قُصِدَت بصفاتها التي تخدم طبيعة أدوارها في القصة ، وباعتبارها نموذجًا ونمطًا ورمزًا لما تقوم به ، وهذا هو المهم هنا ، ونلحظ أيضًا أن شَخْصِيَّتَي الملك والغلام شخصيتان رئيستان مستمرتان في العرض حتى نهاية القصة ؛ لأنهما المحوران المحركان لمجرى القصة والدافعان لها في طريق النمو ، ولكن نهاية الملك تبهمها القصة ، ولم تفصح

---

[١] الجامع لأحكام القرآن ٢٢ / ١٨٧ / للقرطبي / تحقيق : د / عبد الله بن عبد المحسن التركي ، و آخرين / مؤسسة الرسالة / الطبعة الأولى / ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م ، تفسير ابن كثير ٨ / ٣٧٠ / لابن كثير / تحقيق : سامي محمد سلامة / دار طيبة / الطبعة الثانية / ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م .

[٢] الرحيق المختوم / ٢٤ / للمباركفوري / وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / قطر / ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .

[٣] سيرة ابن هشام ١ / ٣١ / لابن هشام / تحقيق : مصطفى السقا ومن معه / مطبعة الحلبي / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥م .

عنها ، فلا ندري إلامَ صار أمره ، أما بقية شخصيات القصة فشخصيات ثانوية تنتهي بنهاية الدور الذي تقوم به ، والشخصية في القصة النبوية هي العنصر البارز الذي يحرك الأحداث ، وتستخلص من سلوكه العبرة والهدف ، هذا بالإضافة إلى أنها تجعل القارئ يطلّ على عالم واسع من الكيان الإنساني الداخلي .

٩- الأسلوب : الطابع العام لأسلوب هذه القصة هو الإيجاز والوضوح والتركيز الشديد الذي لا تكرار فيه ، بل هو محكم محبوك الحلقات متراصّها ، وواضح قوي ، دقيق الفصل والوصل ، مناسب اللفظ ، بليغ العبارة ، بديع الإشارة ، تتخلله بعض العبارات الإنشائية ، متدرج من الأسباب إلى النتائج ، هذا بالإضافة إلى ما فيه من حذف يثير روح التخيل لدى المتلقي ، ويجدد انتباهه ، ويحفظ تركيزه ، وألفاظه سهلة مستعملة على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على العذبات ، سلسة على الأسلات .

المبحث الأول : الملك مع ساحره ، والغلام بين الساحر والراهب :

عن صهيب – رضي الله عنه –أن رسول الله – ﷺ – قال : " كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وكَانَ لَهُ سَاحِرٌ ، فَلَمَّا كَبِرَ ، قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا [1] أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ [2] ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي ، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ : حَبَسَنِي السَّاحِرِ " .

يحكي لنا الرسول – ﷺ – في هذا المقطع من ذلك الحديث ما كان في عهد بني إسرائيل من وجود مَلِك ظالم مفسد في الأرض ، وكان له ساحر يستخدمه في الدجل والشعوذة لتثبيت ملكه الظالم ، ويبين لنا النبي ما كان من أمر هذا الساحر حينما كبر ، حيث طلب من الملك غلامًا ذكيًا ؛ ليعلمه السحر ، فيستجيب الملك ويدفع إليه بغلام ؛ ليعلمه السحر ، ولكن الله أراد لهذا الغلام أمرًا آخر ، حيث جعله يتقابل مع راهب ؛ ليتعلم منه ما فيه الهداية والنفع للعباد .

وابتدأ النبي – ﷺ – حديثه بالفعل الماضي " كان " ؛ ليدل بذلك على أن هذه القصة قد وقعت أحداثها وانتهت في الزمن الماضي ، فقد روي أنها وقعت قبل مبعث النبي – ﷺ – بأربعين سنة كما سبق بيان ذلك [3] ، وكما يشير ذكر الراهب في الحديث ، إذ كان الرهبان بعد نبي الله عيسى – # – لَمّا تفرق الناس وضلوا ، وبقي رهبان قلة على دين عيسى .

واستخدم النبي – ﷺ – كلمة " ملك " بدلًا من رجل – مثلًا – لأن أحداث القصة تصور لنا صور الظلم والفساد والبطش والعدوان والجبروت ، وهذا ما يتلاءم ويتناسب مع حال

---

[1] الغُلامُ معروف ابن سيده الغُلامُ الطَّارُّ الشارب وقيل هو من حين يولد إلى أن يشيب والجمع أَغْلِمَةٌ وغِلْمَةٌ وغِلْمانٌ . لسان العرب / مادة : غلم .

[2] الراهب : هو المُتَعَبِّد في صومعة من النصارى الذي يتخلى عن أشغال الدنيا ويترك ملاذها ويكون زاهدًا فيها معتزلًا أهلها ، والجمع رهبان ، وقد يكون الرُّهْبان واحدًا ، والجمع رهابين ورهابنة ، القاموس المحيط / للفيروزآبادي / دار الفكر / بيروت / لبنان / ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م ، دليل الفالحين ١ / ١٦٢ ، المعجم الوسيط / مجمع اللغة العربية / مكتبة الشروق الدولية / الطبعة الرابعة / ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م / مادة : رهب .

[3] البحث صـ ٦ .

الملوك غالبًا إلا من رحم الله ، وهذا ما حكته بلقيس ملكة سبأ حيث قالت : " إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ " [1] .

وفي تنكير كلمة " مَلِك " دلالة على أن المراد به فرد من أشخاص الملوك دون تعيين أو تعريف ؛ إذ لا حاجة إلى تعيينه ، ولا غرض من تعريفه ، وكذلك أيضًا تنكير كلمة " ساحر " ؛ لأن المقصود فرد غير معين من جنس السحرة ، إذ المراد أنه كان فيمن كان قبلنا ملك ، وكان لهذا الملك ساحر دون التفات إلى تعيين أو تعريف .

واللام في قوله – ﷺ – : " وكان له ساحر " للاختصاص ، أي أن هذا الساحر كان مخصصًا للملك يستعين به
في استعباد الناس بالسحر وتضليلهم والسيطرة على عقولهم ، وفي ذلك دلالة على أن هذا الملك لم يكن صالحًا ،
وإنما كان كافرًا .

ووُصِلَت جملة " كان له ساحر " بجملة " كان فيمن كان قبلكم " ؛ لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظًا ومعنى [2] ، هذا بالإضافة إلى كون الجملتين فعليتين فعلهما واحد ، وهو الفعل الماضي " كان " ، وهذا ما يدعو إلى ترابط الأسلوب وتلاحم أجزائه بحيث تكون كل جملة آخذة بعنق صاحبتها ، وهذا من سمات وملامح بلاغة البيان النبوي . يقول الخطيب القزويني : " ومن محسنات الوصل تناسب الجملتين في الاسمية والفعلية والمضيّ والمضارعة إلا لمانع " [3] .

والفاء في " فلما " عاطفة تفيد العطف في الذكر وترتيب الأحداث بعضها على بعض ، أي وجد الساحر فلما كبر كان منه كذا وكذا .

---

[1] النمل / الآية رقم : ٣٤ .

[2] وهذا ما يعرف لدى البلاغيين بالتوسط بين الكمالين . ينظر الإيضاح ١ / ٢٧٧ / للخطيب القزويني / تحقيق : د / محمد عبد المنعم خفاجي ، د / عبد العزيز شرف / دار الكتاب المصري / القاهرة ، دار الكتاب اللبناني / بيروت / الطبعة السادسة / ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ ، علم المعاني ٢ / ١٧١ / د / بسيوني فيود / مؤسسة المختار / القاهرة ، دار المعالم الثقافية / الأحساء / الطبعة الأولى / ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م .

[3] الإيضاح ١ / ٢٨٤ .

ولفظة " لما " توقيتية بمعنى حين ، وهي متضمنة معنى الشرط ، وفي التعليق بالشرط بها نوع من التشويق ، حيث إن المتلقي حينما يسمع الشرط " كبر " يتشوق إلى سماع ومعرفة الجواب ، وهو قوله – ﷺ – على لسان الساحر : " قال للملك : إني قد كبرت ، ... " ، هذا بالإضافة إلى ما تشعر به من التعليل ، أي أن كبر الساحر كان سببًا في طلبه من الملك أن يبعث له غلامًا ليعلمه السحر ، وفي هذا لون من ترابط الأسلوب وتماسك أجزائه .

وقال – ﷺ – " كَبِر " بكسر الباء ؛ لأن المراد كِبَر السنّ ، بخلاف " كَبُر " بضم الباء ، فهي تستخدم للقَدْر والمكانة كما في قوله تعالى " كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ [1] " [2] .

وأكد الساحر قوله : " إني قد كَبِرتُ " بـ " إن " وحرف التحقيق " قد " ؛ ليؤكد للملك كِبَرَه وطعنه في السن ؛ ليبادر الملك إلى تلبية طلبه والاستجابة لمقصوده .

والفاء في جملة " فابعث " عاطفة ، ولكن العطف هنا يفيد الترتيب في الذكر الدال على تسلسل الأحداث وتتابعها .

والأمر في " ابعث " للدعاء ، لأنه مُوَجَّه من الأدنى – وهو الساحر – إلى الأعلى ، وهو الملك ، ويحتمل أن يكون بغرض النصح والإرشاد . فحرصًا من الساحر على بقاء السحر قد طلب من الملك أن يبعث له غلامًا يعلمه هذا السحر الذي يموّه على الناس ، ويلبس عليهم . الآمر الذي يساعد على استقرار واستتباب مُلْك الملك

وقال الساحر للملك " ابعث " ولم يقل " أرسل " ؛ لأن البعث فيه معنى الإرسال وزيادة ، وهي الحركة والقوة والشدة ، وكذلك فإن الإرسال لا يكون ألا برسالة وما يجري مجراها ، يقول أبو هلال العسكري : " يجوز أن يبعث الرجل إلى الآخر لحاجة تخصه دونك ودون المبعوث إليه كالصبي تبعثه إلى المكتب فتقول : بعثته ، ولا تقول أرسلته ؛

---

[1] الكهف : ٥ .

[2] لسان العرب / مادة : كبر /لابن منظور / دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية /١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م ، دليل الفالحين ١ / ١٦٢ / لابن علان / تحقيق : خليل مأمون شيحا / دار المعرفة / بيروت / لبنان / الطبعة الرابعة / ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .

لأن الإرسال لا يكون إلا برسالة وما يجري مجراها [1] " . ولا يخفى ما يحتاج إليه الملك الساحر من تعليم السحر احتياجًا ملحًا ، وما يحتاج إليه تعليمه من حركة وقوة وشدة ، وإن كان الإسلام قد حَرَّمَه .

وخصّ الساحر الغلام بالطلب في قوله : " فابعث إليّ غلامًا أعلمه السحر " ؛ ليمتدّ به العمر زمنًا طويلًا ، ولأن الغلام أَقْبَلُ على التعلم وأقدر عليه من غيره ؛ لأن الغلام أسرع حفظًا من الكبير ؛ لكونه فارغ البال ليست عنده مشاكل توجب انشغاله ؛ ولأن ما يحفظه الكبير سريعًا ما ينسى ، فالتعليم في الصغر كالنقش على الحجر ، والتعليم في الكبر كالرقم على الماء ، هذا بالإضافة إلى أن الغلام إذا ثُقِّفَ العلم من أول الأمر أصبح كالسجية والطبيعة له ، وصار كأنه غريزة شَبَّ عليها وشاب [2] .

واستخدم الساحر لفظ " غلامًا " منكرًا للدلالة على الإفراد من غير تعيين ، فهو يريد غلامًا واحدًا من جنس الغلمان من غير تعيين ولا تحديد لعدم تعلق الغرض بذلك ، وقد يكون التنكير هنا للدلالة على التعظيم ، أي فابعث إليّ غلامًا عظيمًا ذكيًّا أريبًا ، ويؤيد ذلك رواية الإمام الترمذي ، حيث جاء فيها " انظروا إليَّ غلامًا فَهِمًا ، أو قال : فَطِنًا لَقِنًا " [3] ، وبما أن هذا الغلام الفَطِن الأريب يُحْتاج للعثور عليه بحث وتفتيش في الغلمان واصطفاء واختير منها فقد قال الساحر : " انظروا " لما تدل عليه كلمة النظر من التأمل وإعمال العقل والبحث الجيد .

وفُصِلَتْ جملة " أُعَلِّمْه " عن جملة " ابعث إليَّ غلامًا " لشبه كمال الاتصال فهي بمثابة جواب عن سؤال اقتضته الجملة السابقة عليها ، وكأن سائلًا سأل وقال : وما تفعل بهذا الغلام ؟ فجاء الجواب " أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ " ، وتكمن بلاغة هذا الأسلوب في أن " الجملة الأولى تثير في النفس خواطر وهواتف فتأتي الثانية مجيبة عن هذه الخوالج ، وكأن بذرة الجملة الثانية مضمرة في الجملة الأولى ، وهكذا يتوالد الكلام وتتناسل الجمل ، ثم

---

[1] الفروق اللغوية / ٢٦٨ / تحقيق : محمد إبراهيم سليم / دار العلم والثقافة / القاهرة (بدون تاريخ) .

[2] شرح رياض الصالحين ١ / ٢١٣ ، ٢١٤ / لابن عثيمين / مدار الوطن / الرياض / ١٤٢٦ هـ .

[3] تحفة الأحوذي ٩ / ٢٦١ .

إن في طيّ هذه الهواتف ، وترك الإفصاح عنها والتعبير الجهير بها ضرب من وجازة الكلام واختصاره ودمجه واكتنازه " [1] .

واستخدم الساحر التعبير بصيغة الفعل المضارع " أُعَلِّم " للدلالة على التجدد والحدوث ، إذ إن تعليم الساحر للغلام أمر يتجدد ويحدث حالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن .

وتعريف " السحر " باللام للدلالة على الجنس والحقيقة ، أي جنس وحقيقة السحر ، أو للدلالة على العهد الذهني ، أي السحر العهود لدى ذهن كلٍّ من الساحر والملك .

والفاء في " فبعث إليه غلامًا يعلمه " عاطفة ، ولكنها عطفت الفعل " بعث " على الفاء المحذوفة مع محذوفها، والتقدير " فاستجاب الملك لطلب الساحر فبعث إليه غلامًا يعلمه السحر " ، وهذه الفاء هي ما تعرف لدى النحاة بالفاء الفصيحة [2] ، وفي هذا الحذف لون من الإيجاز وضرب من الاختصار .

والتعبير بالفعل المضارع " يعلم " للدلالة على التجدد والحدوث ، أي أن التعليم من الساحر للغلام يتجدد ويحدث حالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن .

وحذف المفعول الثاني لهذا الفعل لسبق ذكره قبل ذلك وفهمه من السياق ، والتقدير " يعلمه السحر " ، وهذا من الإيجاز والاختصار للأسلوب .

والفاء في قوله – ﷺ – عن الغلام : " فكان في طريقه – إذا سلك – راهب " استئنافية ، أي أن ما بعدها كلام جديد ، وهي – وإن كانت استئنافية – فهي لا تكاد تنفك عن العطف ، ولكنها تعطف مضمون كلامً على مضمون كلام آخر ، وقصة على قصة ، وهي بهذا تفيد ترتيب الأحداث وتسلسلها وترابطها .

والتعبير بحرف الجر " في " للدلالة على الظرفية ، وكأن طريق الغلام إلى الساحر ظرف والراهب مظروف في هذا الظرف ، وفي هذا إشارة إلى أن الساحر كان لابد أن يمر بهذا الراهب لا محالة ، وكأن الله هيّأ الأسباب ؛ لكي يتقابل مع الراهب ؛ لتعلم منه ، ويكون من ذلك ما يكون بعد ذلك ، وهو الأمر الذي أراده الله سبحانه وتعالى.

---

[1] دلالات التراكيب / ٣١٢ / د / محمد أبو موسى / مكتبة وهبة / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

[2] الفاء الفصيحة : هي الفاء التي تعطف ما بعدها على الفاء المحذوفة مع معطوفها . النحو الوافي ٣ / ٦٣٦ / د / عباس حسن / دار المعارف / مصر / الطبعة الثالثة / بدون تاريخ .

وجملة " إذا سلك " اعتراضية بين خبر كان المقدم " في طريقه " واسمها المؤخر " راهب " ، لبيان أن الغلام ما كان يلتقي بالراهب إلا إذا ذهب إلى الساحر .

و " إذا " هنا ظرفية غير متضمنة معنى الشرط ، فهي تبين وقت رؤية الغلام للراهب ، ولا تفيد الشرطية ولا التعليق.

وفي تنكير لفظة " راهب " دلالة على أن المقصود بها فرد من أفراد الرهبان دون التفات إلى تعيين أو تحديد لعدم تعلق الغرض بذلك .

والفاء في قوله – ﷺ – : " فقعد إليه ، وسمع كلامه " عاطفة على محذوف ، والتقدير : فذهب إلى الراهب ، فسلم عليه ، فقعد إليه ، وسمع كلامه ، والغرض من هذا الحذف تركيز القصة على الأحداث والمشاهد التي تخدم الهدف وطيّ الأحداث المفهومة من السياق وقرائن الأحوال إيجازًا واختصارًا .

واختار النبي – ﷺ – لفظة " قعد " دون جلس ؛ لأن القعود انتقال من أعلى إلى أسفل ، فيقال لمن هو قائم : اقعد ، وأما الجلوس فهو انتقال من سُفْل إلى عُلْو ، فيقال لمن هو نائم أو مضطجع أو متكئ : اجلس [1] ، هذا بالإضافة إلى أن القعود يستعمل فيما فيه لُبْث ومُكْث ، فيقال قواعد البيت ، ولا يقال جوالسه ، وأما الجلوس فيستعمل فيما ليس كذلك ، حيث يدل على سرعة التحول والتغير ، فيقال : جليس الملك ، ولا يُقال قعيده ، إذ إن من حسن أدب الجليس عدم المكث الطويل مراعاة وتقديرًا [2] ، وهذا يعني أن الغلام كان عندما يصل عند الراهب قائمًا ثم يقعد لطلب العلم منه ، ويوحي أيضًا بأن الغلام كان يمكث عند الراهب مدة ليست بالقصيرة ، وهذا يتناسب مع مقام التعلم الذي يحتاج إلى الزمن والصبر .

---

[1] مقاييس اللغة / لابن فارس / تحقيق : إبراهيم شمس الدين / دار الكتب العلمية / بيروت/ لبنان/ الطبعة الأولى /١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م ، درة الغواص / ٥١٨ / للحريري / تحقيق : عبد الحفيظ القرني / دار الجيل / بيروت ، مكتبة التراث الإسلامي / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م ، تاج العروس / للزبيدي / تحقيق : عبد الستار أحمد فراج /مطبعة حكومة الكويت / ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م/ مادتي : قعد وجلس .

[2] تاج العروس / مادة : قعد ، الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القران / ٢٨٨ / د / محمد الشايع / مكتبة العبيكان / الرياض / الطبعة الأولى / ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .

وقال – ﷺ – : " قعد إليه " وعدّى الفعل قعد بحرف الجر " إلى " ، ولم يقل مثلًا : " قعد عنده " ، أو " قعد معه " ، أو " قعد بجواره " ؛ لأن الفعل " قعد " تضمن معنى الميل والسكون والطمأنينة ؛ لأن الغلام وجد عند الراهب ما كانت نفسه مهيّأة ومُعدَّة له ، وهو إفراد الله بالألوهية ، وتلك هي فطرة الله السوية التي فطر –الله – سبحانه وتعالى – الناس عليها ، " وهذا من البلاغة العالية ؛ لأنك ترى اختلاف حرف التعدية يبعث في الفعل معنى آخر جديدًا " [1] .

وعطفت جملة " سمع كلامه " على جملة " قعد إليه " للتوسط بين الكمالين ؛ لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظًا ومعنى ، ولوجود المناسبة بينهما ، وذلك لكونهما جملتين فعليتين فعلهما ماض ،ولاتفاق المسند إليه فيهما وهو ضمير الفاعل العائد إلى الغلام .

وفي هاتين الجملتين : " قعد إليه " و " سمع كلامه " كناية عن توافق وتناسق نفسي الغلام والراهب ، فالراهب مُوَحِّد ، والغلام نفسه مُهَيّأة لتلقي التوحيد وتَقَبُّله بفطرته السويّة النقيّة ، وتلك هي فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فشبه الشيء منجذب إليه ، والأرواح جنود مُجَنَّدة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

وعطفت جملة " أعجبه " على جملة " سمع كلامه " بالفاء لإفادة الترتيب والتعقيب ، أي أن إعجاب الغلام بكلام الراهب جاء بعد سماعه كلامه منه مباشرة دون مهلة زمنية ، ولعل ذلك – كما قلنا – لأن نفس الغلام كانت مستعدة ومهيّأة لاستقبال كلام الراهب ؛ وقع في نفسه موقع القبول ولإعجاب .

ولا يخفى ما في العطف بالفاء هنا من الدلالة على السببية ، حيث إن سماع الغلام لكلام الراهب مع تهيّؤ
نفسه له كان سببًا في إعجابه بكلامه وتَقَبُّله له .

وفي إسناد الإعجاب إلى ضمير الفاعل العائد إلى كلام الراهب مجاز عقلي بعلاقة السببية ، حيث إن كلام الراهب ليس هو الفاعل الحقيقي للإعجاب ، وإنما هو سببه ، ولكن نظرًا لقوة هذه السببية جُعِلَ الكلام كأنه هو الفاعل الحقيقي للإعجاب ؛ ولذا فقد

---

[1] شرح أحاديث من صحيح البخاري / ١٢٨ / د / محمد أبو موسى / مكتبة وهبة / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .

أُسنِد إليه ، وفي هذا دلالة على المبالغة في حسن وقوة وصحة هذا الكلام ، وإلا ما تحقق منه الإعجاب .

وجاء التعبير بـ " إذا " الشرطية في قوله – ﷺ – : " فكان إذا أتى الساحر مَرَّ بالراهب وقعد إليه " للدلالة على أن إتيان الغلام إلى الساحر أمر محقق ومقطوع بوقوعه .

وجاء الفعل " أتى " ، وكذلك الفعل " مَرّ " بصيغة الماضي لفظًا للدلالة على تحقق الوقوع والحصول ، ولكنهما بمعنى المستقبل ؛ لأن أداة الشرط تنقل الماضي إلى معنى الاستقبال ؛ لأن الأصل في الشرط وجوابه أن يكونا مستقبلين لتعليق حصول الجزاء على حصول الشرط في الاستقبال .

وتعريف كل من " الساحر " و " الراهب " هنا باللام للدلالة على العهد الذكري ، وذلك لسبق ذكرهما قبل ذلك ، ومن المعلوم أن اللفظ النكرة إذا أعيد ذكره بلفظ المعرفة كان الثاني عين الأول ونفسه .

والباء في قوله – ﷺ – : " مَرَّ بالراهب " بمعنى الإلصاق ، ولكنه إلصاق مجازي ، أي أن الغلام كان إذا ذهب إلى الساحر ألصق مروره بمكان يقرب من الراهب .

ونلحظ هنا في الجملتين الشرطيتين " إذا أتى الساحر مرّ بالراهب ، وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه " لونًا من

التشويق ، وضربًا من الإثارة ؛ لأن الجملة الشرطية مكونة من شرط وجواب ، فإذا سمع المتلقي الشرط تشوقت نفسه وتاقت إلى سماع الجواب ومعرفته ، فّإذا جاءها الجواب بعد هذا التشوق وذلك التَّوْق أَنِسَتْ به ، وتمكن منها فضل تمكن .

والفاء في " فشكا " عاطفة ، حيث عطفت الفعل " شكا " على الفعل " ضرب " ، وهذا يدل على أن شكوى الغلام الساحر للراهب قد حدثت بعد الضرب مباشرة وبلا مهلة ، وجاءت مترتبة عليه ومسببة عنه ، وهكذا تترابط الجمل وتتمسك .

وشكوى الغلام هذه لم تكن يأسًا ولا تذمّرًا ولا اعتذارًا عن مواصلة الطريق الذي شرع فيه – وهو طريق محفوف بالمخاطر والمكاره – وإنما هي شكوى للحكيم صاحب الخبرة والمعرفة لعله يجد عنده الحلول الصحيحة والمناسبة للمشكلة التي اعترضته ؛ لكي يستطيع مواصلة طريقه .

وفي الإشارة باسم الإشارة " ذلك " المقترن بلام البعد إلى ضرب الساحر للغلام دلالة على أن ضرب الساحر للغلام أمر بعيد المنزلة في الذم والقبح ؛ لما في ذلك من ظلم الغلام والاعتداء عليه ، هذا بالإضافة إلى ما في الإشارة إلى هذا المعنى من تصوير له وتجسيم .

والفاء الداخلة على جملة " فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي ، ... " عاطفة ، حيث عطفت الجملة الداخلة عليها على جملة " شكا ذلك إلى الراهب " ، وهذا يعني أن إجابة الراهب للغلام على شكواه من ضرب الساحر له أتت بعد الشكوى مباشرة وبدون مهلة ، وأتت مترتبة عليها ، ومسببة عنها .

ويحتمل أن تكون الفاء هذه للاستئناف ، ولكنها لا تفيد الاستئناف البياني الذي يعني أن الجملة الثانية تكون متولدة عن الأولى ، أي تكون بمثابة جواب عن سؤال أثارته الجملة الأولى ، وفهم من فحواها ، وإنما تفيد الاستئناف الذي " يجعل الكلام مرتبًا بعضه على بعض ، وليس متولدًا بعضه عن بعض ، كما لو كان بدونها " [1] .

وعبر الراهب بأداة الشرط " إذا " للدلالة على أن مدخولها – وهو خشية الغلام من الساحر وأهله – أمر ثابت ومحقق الوقوع ومقطوع الحصول بدليل ضرب الساحر له .

وقال الراهب للغلام " خشيت " ولم يقل " خفت " ؛ لأن الغلام من طلاب العلم وتلاميذ الراهب المُتَعَبَّد العارف بالله ، والخشية تكون للعلماء العارفين ، وتكون مع العلم بالمخشي وحاله ، بخلاف الخوف فإنه يكون للعامة والجهلاء ، ويكون من ضعف الخائف ، وبذلك فالخشية أخص وأعلى مقامًا من الخوف . هذا بالإضافة إلى أن الخشية تتعلق بمنزل المكروه – وهو هنا الساحر وأهل الغلام – والخوف يتعلق بالمكروه وبترك المكره [2].

---

[1] دلالات التراكيب / ٣١٨ ، علم المعاني ٢ / ١٦٨ / د / بسيوني فيود / مؤسسة المختار ، دار المعالم الثقافية / الطبعة الأولى / ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .

[2] الفروق اللغوية / ٢٤١ .

والغرض البلاغي من الأمر " قل " في قول الراهب للغلام " إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر " هو النصح والإرشاد ؛ لما يحمله الأمر هنا من معاني النصيحة والموعظة
والإرشاد ، وهو أمر لا تكليف فيه ولا إلزام ، هذا بالإضافة إلى أنه يوحي بما يضمره الراهب للغلام من حب وإشفاق
وإخلاص .

وفي قوله : " حبسني أهلي " وقوله " حبسني الساحر " توريتان : أما الأولى ففي لفظة " أهلي " ، حيث إنها تحتمل معنيين : المعنى الأول هو الأهل بمعنى الأقارب والعشيرة ، وهذا هو المعنى القريب الظاهر ، وهو غير مراد ، والمعنى الثاني هو الأهل بمعنى المعلمين والمرشدين إلى السعادة ، وهذا هو المعنى البعيد ، وهو المراد ، وأما التورية الثانية ففي لفظة " الساحر " ؛ لأن الغلام لا يصل إلى أهله إلا بعد المُكْث عند الساحر والراهب ، ولكن احتمال التورية هنا في لفظة " الساحر " احتمال ضعيف ؛ لأنها لا تحتمل معنيين ، بخلاف احتمال التورية في لفظة " أهلي " فهو أوضح وأبين لاحتمالها معنيين [1].

وفي احتمال التورية هنا تمكين للغلام من إخفاء المعنى الذي يخشى التصريح به لأهله وللساحر ؛ لكي ينجو من العقوبة ، ويدفع المحذور مع الصدق ، وفي التورية هنا أيضًا تمكين للمعنى الثاني (المُوَرَّى عنه) في نفس المتلقي ؛ لأنه لا يقف عليه ، ولا يصل إليه إلا بعد تأمل وطول نظر ، هذا بالإضافة إلى ما في التورية من حسن حيث إن المعنى البعيد المراد يظهر من خلف المعنى القريب غير المراد في صورة حسنة أنيقة كما يبدو وجه المرأة الحسناء من وراء البرقع [2] .

ويحتمل أن يكون التعبير هنا ليس فيه تورية ، وإنما هو من قبيل الكذب المستثنى المباح الذي أجازه الإسلام للضرورة ، ولا سيّما في حق الله – سبحانه وتعالى – والدفاع

---

[1] إكمال إكمال المعلم ٧ /٣٠٦ / للأبيّ / مطبوع بذيل صحيح مسلم / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / بدون تاريخ ، مُكَمِّل إكمال المعلم ٧ / ٣٠٦ / للسنوسي / مطبوع بذيل صحيح مسلم أيضًا / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / بدون تاريخ .

[2] علم البديع / ١٨١ / د / بسيوني فيود / مؤسسة المختار / القاهرة ، دار المعالم الثقافية / الأحساء / الطبعة الثانية / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م .

عن الإيمان وأهله ، وإنقاذ النفس من الهلاك ، ويؤيد ذلك أن النبي – ﷺ – ذكر ذلك الحديث في معرض الثناء على الراهب والغلام واستحسان فعلهما ، إذ لو كان ذلك مُحَرَّمًا وغير جائز لبيّنه ووضّحه النبي – ﷺ – لأمته [1] .

وعطفت جملة " إذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر " على جملة " إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي " ؛ لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين ؛ وذلك لاتفاق الجملتين في الإنشائية ، فهما إنشائيتان لدلالتهما على الاستقبال ، هذا بالإضافة إلى كونهما فعليتين فعلهما بصيغة واحدة ، وهي المضيّ ، وكذلك فالمسند إليه فيهما واحد ، ألا وهو الضمير العائد إلى الغلام .

---

[1] المفهم ٧ / ٤٢٤ ، ٤٢٥ / للقرطبي / تحقيق : محيي الدين مستو ، وآخرين / دار ابن كثير / دمشق / بيروت ، دار الكلم الطيب / دمشق / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م ، شرح النووي لصحيح مسلم ١٨ / ١٣٠ / دار إحياء التراث العربي / بيروت / الطبعة الثانية / ١٣٩٢ هـ ، إكمال إكمال المعلم ٧ / ٣٠٦ ، مُكَمِّل إكمال المعلم ٧ / ٣٠٦ .

المبحث الثاني : الغلام بين ضلال وكفر الساحر وهدى وإيمان الراهب :

" فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّة [1] عَظِيمَة قَدْ حَبَسَت النَّاسَ ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ : أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي ، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى ، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ "

يبيّن لنا النبي – ﷺ – في هذا المقطع ما أظهره الله – عز وجل – على يد هذا الغلام من كرامة ملأت قلبه يقينًا وثباتًا ، وذلك بقتل الدابة التي حبست الناس ، وهنا أخبر الغلام الراهب بما كان من أمر هذه الكرامة التي أجراها الله على يديه ، فتنبّأ له الراهب بأنه سَيُبْتَلَى ، وناشده ألا يدل عليه إذا ابْتُلِي ، وتحققت له هذه النبوءة .

والفاء في " فبينما " للاستئناف ، أي الاستئناف في معنى جديد والبدء في الحديث فكرة أخرى جديدة ، و " بينما " ظرف زمان متضمن معنى الشرط ؛ ولذلك يقع لها جواب ، وأصلها " بين " مضافة إلى أوقات مضافة إلى جملة ، ثم حذفت الأوقات ، وزيدت عليها " ما " عِوَضًا عنها ، وهي بمعنى أثناء أو خلال أو في حين ، وهي تدل على المفاجأة ؛ ولذا يكثر اقترانها بـ " إذ " أو " إذا " الدالّتين على المفاجأة [2] .

وزيادة " ما " عليها تدل على ترقي المعنى وبلوغه غاية عالية ، أي أن الغلام قد بلغ غاية عالية في التردد بين الساحر والغلام ، وقد بلغ من أمره معهما ما بلغ ، وحدث لم منهما ما حدث ، وكان ما كان من أمره معهما ، حيث إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، " وكأن المتكلم وهو يشبع اللفظ إنما يملؤه بزخم قلبه ، وما يجده في نفسه " [3] ، أي في الوقت الذي كان عليه حال الغلام مع الساحر والراهب وتردده بينهما أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فكان من أمره معها ما كان .

---

[1] ذكر الترمذي أن هذه الدابة كانت أسدًا . تحفة الأحوذي ٩ / ٢٦٢ ، وذكر ذلك القرطبي ، وذكر كذلك في رواية الضحاك عن ابن عباس أنها كانت حية . الجامع لأحكام القرآن ٢٢ / ١٨٧.

[2] درة الغواص / ٢٧٠ – ٢٧٢ ، شرح أحاديث من صحيح البخاري / ٩٥ .

[3] شرح أحاديث من صحيح البخاري / ١٤٦ .

وفي قوله – ﷺ – " فبينما هو كذلك " تشبيه أداته الكاف ، وحذف منه أحد ركنيه ، والتقدير : فبينما هو على حال مثل هذه الحال ، وهذا من تشبيه الشيء بنفسه تنويهًا بشأن الخبر ، فيجعل كأنه مما يطلب المتكلم تشبيهه ثم لم يجد إلا أن يشبهه بنفسه لقصد المبالغة ، ويحتمل ألا تدل " كذلك على التشبيه ، وإنما هي للتحقيق والتوكيد ، وجيء بكاف التشبيه لبيان تمام المطابقة بين الحقيقة الخارجية والحقيقة الكلامية ، أي أن ما يكون في الواقع يطابق ما دل عليه الكلام " [1] .

واستخدم النبي – ﷺ – اسم الإشارة " ذلك " مقترنًا بلام البعد تنبيهًا على تعظيم وتهويل المشار إليه ، وهو الحال التي كان عليها الغلام من التردد بين الساحر والراهب .

ولفظة " إذ " زائدة للدلالة على المفاجأة ، وهي لما مضى من الزمان ، أي أن إقبال الغلام على الدابة التي

حبست الناس وما كان من أمره تجاهها قد حدث فجأة ، ووقع في الزمن الماضي .

والفعل " أتى هنا بمعنى مَرَّ ، و " على " بمعنى هنا بمعنى الباء ، أي بينما الغلام في أثناء تردده بين الغلام والساحر مَرَّ بدابة عظيمة كان من أمرها مع الناس وأمره معها ما كان .

ونُكِّرَتْ كلمة " دابة " لعدم تعلق الفائدة والغرض من تعريفها وتعيينها ، وقد يكون تنكيرها للدلالة على النوع ، أي أن ما حبس الناس كان من جنس الدواب .

ووُصِفَتْ الدابة بأنها " عظيمة " تقليلًا للاشتراك ، وتخصيصًا لها بصفة تميزها عن غيرها ، هذا بالإضافة إلى أن الوصف بذلك يؤيد ما ذكر بعد ذلك من حبسها للناس ، فهي لا تستطيع أن تحبسهم إلا إذا كانت عظيمة كذلك .

وأكد النبي – ﷺ – الفعل " حبس " بحرف التحقي " قد " ؛ ليؤكد الحبس الذي أُسْنِدَ للدابة ، وهذا التوكيد والوصف السابق بأنها عظيمة يتعاضدان في توكيد أثبات الحبس المسند إلى هذه الدابة .

---

[1] التحرير والتنوير ٢ / ٢١٦ ، لابن عاشور / الدار التونسية / تونس / ١٩٨٤ م ، من بلاغة القرآن / ٢١٦ / د / أحمد بدوي / نهضة مصر / الطبعة الثالثة / ٢٠٠٤ .

وتعريف الناس بـــ" أل " للدلالة على الاستغراق العرفي ؛ ولذا فالمراد بمدخولها جميع أفراد الرجال الذين كانوا موجودين في المكان الذي كانت فيه الدابة ، لا جميـــع الأفـــراد التي يتناولها لفظ " الناس " بحسب الوضع .

والفاء في قوله – ﷺ – حكاية عن الغلام : " فقال : اليوم أعلـــم آلـــساحر أفـــضل أم الراهب أفضل ؟ " عاطفة ، حيث عطفت جملة " قال " على جملة " أتى " ، وهذا العطـــف يدل على أن قول الغلام لهذه الجملة جاء بعد مروره على الدابة مباشرة وبلا مهلة زمنية ومسببًا عنه ، ولعل تعقيب الغلام بهذا القول بعد مروره على الدابة مباشرة جاء نتيجـــة ما كان يساور نفسه في معرفة حقيقة كل من الساحر والراهب وبيـــان أيهمـــا أفـــضل ، وأيهما على الحق وأيهما على الباطل ، وهذا القول يصور لنا ما كان " يدور فـــي نفـــس الغلام من قلق نفسي وهم يثقل كاهله ، وهو موزع بين تلقي الدِّين من الراهـــب وبـــين تلقي السحر من الساحر ، وهو وإن كان قد استجاب بفطرته إلى صدق ما عند الراهـــب إلا أنه يحس أنه في حاجة إلى طمأنينة أكثر تنبع من الواقع فوق يقينه الفطـــري " [1] ، ونظير ذلك قولـــه – تعالى – في شأن سؤال سيدنا إبراهيم– # – عـــن كيفيـــة إحيـــاء الموتى : " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَـــى وَلَكِـــنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي " [2] .

و جاء اليوم معرفًا بـــ" أل " للدلالة على العهد الحضوري ، لحضور ذلك اليوم بذاته ، حيث لم يتقدم لمخولها ذكر لا صريحًا ولا كنائيًّا .

والتعبير بالفعل المضارع " أعلم " للدلالة على التجدد والحدوث في الزمن الحاضـــر ، حيث قيّد الفعل بزمن
الحاضر " اليوم " .

والاستفهام في قول الغلام " أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ " لـــيس للـــشك ، وإنما هو للاستثبات والاطمئنان [3] ،فالغلام من خلال التقائه بكل من الـــساحر والراهـــب وتعلمه منهما قد تبين له ما عليه الساحر من كفر وضلال ، وما عليه الراهب من هدايـــة

---

[1] القصص في الحديث النبوي / ١٧٣ / د / محمد بن حسن الزير / الرياض / الطبعة الرابعة / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .
[2] البقرة : ٢٦٠ .
[3] إكمال أكمال المعلم ٧ / ٣٠٦ ، مُكَمِّل إكمال المعلم ٧ / ٣٠٦ .

وإيمان ، ولم لديه شك في ذلك ، ولكنه أراد أن يستثبت ويطمئن لصدق ذلك عملًا وعلانية بالدليل الواقعي الحي كما استقر في قلبه يقينًا ؛ لكي يطمئن قلبه ، ويتأكد لديه باليقين الواقعي ما كان قد اختاره بسلامة فطرته ونقائها .

والتعبير بأسلوب التفضيل " أفضل " ليس على بابه ؛ لأنه لا يدل على اشتراك كل من الساحر والراهب في الفضل

وزيادة أحدهما على الآخر في ذلك ؛ لأن الساحر لا فضل فيه ، وإنما يدل ذلك على المبالغة في التفضيل لا الأفضلية ، أي أن أحدهما – وهو الراهب – هو الحقيق والجدير بالتفضيل دون الساحر .

و " أم " هنا هي المتصلة التي يليها معادل – وهو الراهب – لما قبلها ، وهو الساحر ، هذا بالإضافة إلى أنها تدل على أن ما بعدها داخل في حَيِّز الاستفهام السابق عليها ، فالاستفهام هنا موجه إلى كل من الساحر والراهب ، وذلك بخلاف " أم " المنقطعة ، فإنها تكون بمعنى بل التي تكون للانتقال من كلام إلى آخر لا يمتد إليه تأثير الاستفهام السابق عليه [1] .

وذُكِرَتْ لفظة " أفضل " مرة ثانية ، وكان يمكن الاستغناء عنها لفهمها من السياق ، فيقال : " اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب ؟ " ، على حد قوله – تعالى – : " أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا " [2] ، أي وظلها دائم ، حيث يجوز حذف الخبر إذا كانت الجملة المحذوفة معطوفة على جملة اسمية أخرى والمبتدآن مشتركان في الحكم [3] ، وإنما أعيد ذكرها مع الجملة الثانية إبرازًا وإيضاحًا وتقريرًا توكيدًا للمعنى الذي يريد أن يصل إليه الغلام ، وهو وجود الأفضلية لأحدهما دون الآخر ، وجاءت هذه الإعادة معبرة عما يساور نفس الغلام كثيرًا من آن لآخر ، ويدور في خلده دائمًا .

والفاء في " فأخذ حجرًا " عاطفة ، لإفادة الترتيب والتعقيب ، أي أن أَخْذ الغلام للحجر جاء بعد قوله : " اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ " مباشرة وبدون مهلة ، ومترتبًا عليه ، ومسببًا عنه .

---

[1] علم البديع / ٩١ ، ٩٢ / د / عبد العزيز عتيق / دار النهضة / بيروت / لبنان / بدون تاريخ .

[2] الرعد : ٣٥ .

[3] علم البديع / ١٢٩ / د / عبد العزيز عتيق .

وكذلك الفاء في " فقال : اللهم إن كان أمر الراهب " عاطفة أيضًا للدلالة على الترتيب والتعقيب كذلك ، أي أن قول الغلام بهذا الدعاء جاء بعد أن أخذ الحجر مباشرة بلا مهلة ، وأتى مترتبًا عليه ، ومسببًا عليه .

ونلحظ أن العطف بالفاء في هذه المواضع الثلاثة : " فقال : اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ " و " فأخذ حجرًا " و " فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك ... " يدل على أن أمر إثبات الأفضلية

للساحر أو الراهب كان يساور نفس الغلام ويلح عليه بين كل حين وآخر ، وهو يريد أن يستثبت من ذلك وتطمئن نفسه ، فبمجرد أن رأى الدابة العظيمة التي قد حبست النـــاس أسرع وقال ما قال ، وفعل ما فعل ؛ لينتج عن ذلك ما تصبو وتتوق إليه نفــسه ، وهــو إثبات الأفضلية لأحدهما ، وهو الراهب .

والغرض من النداء في قول الغلام : " اللهم إن كان أمر الراهــب أحــب إليــك ... " الاستثبات والاطمئنان لنفس

الغلام فعلًا وتطبيقًا كما اطمأنت علمًا ومعرفة ، والميم المشددة في " اللهم " عوض عــن أداة النداء المحذوفة ،

ولعل السر في اختيار الغلام لهذه الصيغة هو ما فيها من " فخامة وروعة " [1] ، وهــذا يتناسب مع فخامة وروعة الموقف الذي شغل بال الغلام تجاه هذه الدابة العظيمــة التــي حبست الناس .

والفعل " كــان " ماض لفظًا مستقبل معنى ؛ لأن أداة الــشرط تنقــل الماضــي إلــى الاستقبال ؛ لأن الأصل في الشرط

وجوابه أن يكونا مستقبلين ، لتعلق حصول الجــزاء علــى حــصــــول الــشرط فــي الاستقبال [2] .

---

[1] من بلاغة القرآن / ١٦٩ .

[2] بحوث المطابقة لمقتضى الحال / ٢٢٣ ، ٢٢٤ / د / علي البدري / المكتبة الحسينية / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م .

وأفعل التفضيل " أحب " هنا ليس على بابه ، وإنما هو للدلالة على المبالغة ؛ كما سبق في لفظة " أفضل " ؛ لأن الساحر ليس محبوبًا إلى الله بأي حال ، بل العكس هو الصحيح .

وفي أسلوب الشرط هذا" إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة " لون من التشويق والإثارة للمتلقي ؛ لأن المتلقي حينما يطرق سمعه الشرط تتشوق نفسه وتتوق إلى معرفة الجزاء ، فإذا جاءها الجزاء بعد ذلك أنست به ، واستقر فيها ، وتمكن منها فضل تمكن .

وفي الفاء الداخلة على جواب الشرط " فاقتل " دلالة على تآزر الجمل ، وترابط المفاهيم ، والتحام الدلالات ، وتماسك الأسلوب ، وتقوية لأواصره .

والغرض البلاغي من الأمر " اقتل " على لسان الغلام هو الدعاء ؛ لأنه صادر من الأدنى – وهو الغلام – على الأعلى منزلة وقدرًا ،وهو الله سبحانه وتعالى ، هذا بالإضافة إلى ما يحمله الأمر هنا في طياته من معاني التضرع وجمال الخضوع والخشوع لله رب العالمين ، وفي اختيار الغلام لأسلوب الأمر دلالة على رغبته القوية في تحقيق مطلبه وتلبية مأربه ، وهو قتل هذه الدابة ليمضي الناس بعد أن قد حبستهم .

وفي الإشارة إلى الدابة باسم الإشارة " هذه " دلالة على تمييز وتحديد هذه الدابة لإحضارها في ذهن المتلقي متميزة تمام التمييز ومحددة كل التحديد ؛ " لأن اسم الإشارة بطبيعة دلالته يحدد المراد منه تحديدًا ظاهرًا ، ويميزه تمييزًا كاشفًا [1] " ، وكأن هذه الدابة يراها المتلقي أمام ناظريه وقد فعلت ما فعلت .

وذكرت " الدابة " هنا معرفة بـ " أل " للدلالة على العهد الذكري ؛ وذلك لسبق ذكرها صريحًا قبل ذلك في قوله – ﷺ – عن الغلام : " فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس " ، واللفظ النكرة إذا أعيد ذكره بعد ذلك معرفة كان الثاني هو عين الأول ونفسه .

والتعبير بـ " حتى " هنا للدلالة على التعليل ، فهي بمعنى " كي " ؛ لدلالة المضارع بعدها على الاستقبال ، أي أن السبب والعلة من قتل هذه الدابة هو معرفة الحق ومُضِيّ

---

[1] خصائص التراكيب / ٢٠٠ / د / محمد أبو موسى / مكتبة وهبة / القاهرة / الطبعة الرابعة / ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م ، وينظر : علم المعاني ١ / ١٠٧ / د / بسيوني فيود .

الناس لقضاء حوائجهم وطلب مآربهم ، وفي هذا إشارة إلى حب الغلام لمنفعة قومه ، حيث لم يكن أنانيًا يريد أن يبقى في الحق وحده ، ويكون في الناس ما يكون من تعطيل مصالحهم وعدم قضاء حوائجهم ومآربهم . ويحتمل أن تكون " حتى " هنا للدلالة على الغاية وليست للتعليل ، إذ الغاية من السؤال هي مصلحة الناس حتى يمروا ، ولكن الدلالة على التعليل هنا أوضح وأظهر من الدلالة الغاية .

وفي التعبير بالفعل المضارع " يمضي " دلالة " على التجدد والحدوث ، أي أن مُضيّ الناس بعد قتل الغلام الدابة يتجدد حالًا بعد حال ، ويحدث آنًا بعد آن .

وتعريف " الناس " بـ " أل " للدلالة على الاستغراق العرفي ، أي المتعارف عليه ، وهم الناس الذين كانوا موجودين في هذا المكان الذي حبستهم الدابة فيه فحسب ، وليس كل الناس الذين كانوا موجودين في كل بقاع الدنيا في ذلك الزمان لاستحالة ذلك .

والفاء في " فرماها " عاطفة للدلالة على الترتيب والتعقيب ، حيث عطفت جملة " رماها " على جملة " قال اللهم : إن أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة " ، فجاء الرمي مترتبًا على القول بهذا الدعاء ، و متعقبًا عليه بلا مهلة ، ومسببًا عنه . وهذا يوحي بشغف الغلام وشوقه لرمي هذه الدابة ؛ لكي يخلص الناس من حبسها لهم حبًا لمنفعتهم وحرصًا على مصلحتهم .

وكذلك الفاء في " فقتلها " عاطفة أيضًا ، وفي هذا دلالة على سرعة استجابة الله – عز وجل – لدعوة الغلام ، فبمجرد أن دعا تحققت الاستجابة ، أي أن قتل الدابة حدث بعد الرمي مباشرة ، ومترتبًا عليه ، ومسببًا عنه ، وفي هذا إيحاء بقرب هذا الغلام من ربه ، وأنه على المنهج القويم والطريق المستقيم .

وفي إسناد القتل على الغلام في " فقتلها " مجاز عقلي علاقته السببية ؛ لأن رمي الغلام الدابة بالحجر ما هو إلا سبب في قتلها ، بينما الفاعل الحقيقي للقتل هو الله سبحانه وتعالى ، وإنما أسند القتل للغلام ؛ لأن رميه الدابة بالحجر هو السبب في قتلها [1] ، وهذا ينبئ عن اهتمام الغلام بقتل هذه الدابة وشدة رغبته في ذلك ، حتى

---

[1] دليل الفالحين ١ / ١٦٣ .

صار كأنه هو الفاعل الحقيقي للقتل. ويعد قَتْل الغلام لهذه الدابة بهذه الكيفية كرامة له ، وفي هذا دلالة على أن الله يؤيد أولياءه ببعض الخوارق تأييدًا وتثبيتًا وتكريمًا لهم .

وعطفت جملة " مضى الناس " على جملة " قتلها " للتوسط بين الكمالين ؛ لاتفاق الجملتين في الخبرية ، ولكونهما فعليتين ، وفعلاهما بصيغة واحدة وهي المضي ، ولأن الجملتين كلتيهما علة للقتل ومترتبتان معًا عليه ، إذ الغلام لم يقصد من رميه الدابة بالحجر قتلها فقط ، وإنما قصد قتلها ، وقصد كذلك من وراء قتلها هدفًا آخر نبيلًا ساميًا هو مضيّ الناس لقضاء مآربهم وتحقيق مطالبهم .

والفاء في جملة " فأتى الراهب " ، وجملة " فأخبره " ، وجملة " فقال له الراهب " عاطفة لإفادة الترتيب والتعقيب ، فجملة " أتى الراهب " مترتبة على قوله : " قتلها ومضى الناس " ومسببة عنه ، وكذلك جاءت جملة " أخبره " مترتبة على جملة " أتى الراهب " ، وجملة " قال له الراهب " مترتبة على جملة " أخبره " ، فكل جملة من هذه الجمل دلت على حدث أتى بعد الحدث التي دلت عليه الجملة السابقة عليها مباشرة وبدون مهلة زمنية ، وكأن هذه الفاء قد طوت الزمن بين هذه الأحداث فجاءت متتابعة ومتلاحقة بدون مهلة ، هذا بالإضافة إلى أنها أفصحت لنا عما انطوت عليه نفس الغلام من الرغبة السريعة في سرعة إنجاز هذه الأحداث على الترتيب والتوالي والتعقيب مباشرة ، هذا بالإضافة أيضًا إلى ما بين هذه الجمل من رابط السببية والمسببية ، حيث جاءت كل جملة من هذه الجمل مسببة عما قبلها وسببًا فيما بعدها .

وفي إخبار الغلام الراهب بما كان من أمره مع الناقة دلالة على " أنه لا بأس بذكر الإنسان مفاخره ، وحمد الناس
له ، والثناء عليه بحضوره إذا لم يترتب عليه فتنة من نحو عُجْب " [1] .

وجاء النبي – ﷺ – بفاعل الفعل " قال " هنا وهو " الراهب " صريحًا لا مضمرًا لأمن اللبس ؛ لأنه مع الإضمار قد يظن ظانّ أن الضمير يعود إلى الغلام ، ويكون التقدير حينئذ " فأتى الراهب ، فأخبره ، فقال له ، أي الغلام للراهب " ، وليس هذا هو المراد ، وإنما المراد أن الراهب هو الذي قال للغلام ما قال .

---

[1] السابق / نفس الجزء والصفحة .

واختار الراهب أداة النداء " أي " في مناداته الغلام بقوله : " أَيْ بُنَيّ أنت اليوم أفضل مني " لدلالتها على قرب الغلام من الراهب مكانًا ومكانة ، فأما عن قربه منه في المكان فلكونه أمامه وبين يديه ، وأما عن قربه منه في المكانة والمنزلة فلكونه تلميذه المدلّل المقرب المُتَوَسَّم فيه الخير الكثير والنفع العميم .

وفي مناداة الراهب للغلام بوصف النبوة مصغّرًا " بُنَيّ " دلالة على المحبة والاستعطاف والتلطف بالغلام وإظهار التحبب له ، والشفقة عليه ، وإمحاض النصح له ، وأيضًا فيه دلالة على شدة قرب الغلام من الراهب ، وعظيم مكانته عنده ، وحسن رفقه به ، هذا بالإضافة إلى ما في ذلك من استجاشة مشاعر الغلام واستمالة قلبه ، كل ذلك وغيره كثير مما انطوت عليه هذه الصيغة أدعى لقبول النصح ، والاستجابة لتوجيهه وإرشاده ، والامتثال لأمره .

و " أل " في لفظة " اليوم " هنا للعهد الذكري ، وذلك لسبق ذكره قبل ذلك في قول الغلام " اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ " ، ويؤيد ذلك أن اللفظ المعرفة إذا أعيد ذكره معرفة فالثاني عين الأول ، هذا بالإضافة إلى عطف الأحداث السابقة بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب بلا مهلة للأحداث الداخلة عليها ، ويحتمل أن يكون اليوم الذي يقصده الراهب غير اليوم الذي تحدث عنه الغلام قبل ذلك ، وبناء على ذلك نكون " أل " للدلالة على العهد الحضوري ، أي بحضور هذا اليوم بذاته ، ؛ حيث لم يسبق له ذكر صريحًا ولا تلويحًا .

وفُصِلَت جملة " قد بلغ من أمرك ما أرى " عن جملة " أنت اليوم أفضل مني " ؛ لشبه كمال الاتصال ، حيث إن جملة " قد بلغ من أمرك ما أرى " أتت كالجواب عن سؤال أثارته الجملة الأولى ، وكأن الغلام قد سأل الراهب قائلًا : وما هو وجه أفضليتي عنك ؟ فجاء الجواب أنه قد بلغ من أمرك ما أرى . وبما أن الجملة الثانية جاءت كالجواب عن السؤال التي أثارته الجملة الأولى فإن الجملة الثانية مرتبطة بالجملة الأولى ارتباط الجواب بالسؤال ؛ ولذا فقد ترك العطف بينهما كما لا يعطف الجواب على السؤال ؛ لما بين الجواب والسؤال من ترابط وثيق ، وصلة قوية ، وهذا هو أُسّ البلاغة . ولب لبابها .

وأكد الراهب جملة " قد بلغ من أمرك ما أرى " بحرف التحقيق " قد " ؛ لينقل للغلام حكمه عليه مؤكدًا ؛ وذلك لما علمه الراهب من شأنه العجيب ، ووصل إليه من أمره العظيم ، حيث الكرامة التي أجراها الله على يديه بقتل الدابة العظيمة التي قد منعت الناس ، وليس التأكيد هنا لشك الغلام في حاله ؛ إذ هو أعلم بحال نفسه وما وصل إليه أمره من غيره .

واستخدم الراهب لفظة " الأمر " دون الحال ؛ لأن الأمر تعني الحال المهم العظيم ، وهذا ما وصل إليه الغلام ، وأضاف الراهب الأمر إلى الضمير العائد إلى الغلام ؛ لأنه صاحبه والخاص به .

وعبر بالمضارع " أرى " للدلالة على التجدد والحدوث ، أي ما أراه يظهر عليك يومًا بعد آخر ، ويحتمل أن يكون ذلك للدلالة على استحضار الصورة أمام المتلقي ماثلة أمامه ، حتى كأنه يراها بعينيه ويشاهدها بناظريه ، ويحتمل أن تكون " أرى " هنا بمعنى أعلم ، أي قد بلغ من أمرك وحالك ما أعلمه عنك وأعرفه .

وقال الراهب " أرى " ولم يقل أشاهد ؛ لأن الرؤية قد تكون بالعقل والبصيرة ، أي أن الغلام قد بلغ من أمره ما أدركه الراهب بعقله وعرفه ببصيرته ، ولعل هذا هو المراد هنا ، وقد تكون بالمشاهدة بالعين ، إذ لم يكن الراهب حاضرًا ولا مشاهدًا قتل الغلام للدابة .

وأخبر الراهب الغلام بأنه سَيُبْتَلَى بقوله " وإنك سَتُبْتَلَى " وأكد الراهب هذا الخبر بـ " إن " والسين الدالة على الاستقبال والتسويف والتنفيس ، يقول ابن هشام : " فدخولها على ما يفيد الوَعْد أو الوعيد مقتضٍ لتوكيده وتثبيت معناه " [1] .

ولعل إخبار الراهب الغلام بهذا الابتلاء إخبارًا مؤكدًا قد جاء " بطريق الكشف ، فيكون ذلك كرامة ، أو بطريق الفراسة ، أو بطريق العادة والتجربة ، إذ إن من خالف الناس في منهجهم ابتلوه وآذوه " [2] .

واختار الراهب السين دون سوف رغم دلالة كل واحد منهما على الاستقبال والتسويف ؛ لدلالة السين على المستقبل القريب ، حيث إنها – – كما يرى البصريون – تدل على

---

[1] مغني اللبيب ٢ / ٣٤٦ / لابن هشام / تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الطلائع / القاهرة / ٢٠٠٥ م .

[2] دليل الفالحين ١ / ١٦٣ .

قرب مدة التنفيس [1] ، فمدة الاستقبال معها أضيق منها مع سوف ، حيث إن زمان سوف أكثر تراخيًا من السين لزيادة حروفها ، حيث إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

واستخدم الراهب الفعل " تُبْتَلَى " مبنيًا للمجهول، وحذف الفاعل لكونه معلومًا للمخاطب ، فلا يحتاج إلى ذكره ؛ لأن فاعل الابتلاء حقيقة هو الله وحده .

وقال الراهب " تبُتْلَى " ولم يقل " تُبْلَى " ، فعبر بصيغة الافتعال ، لدلالة الافتعال على المبالغة ، وهذا يدل على أن الغلام سيواجه اختبارًا صعبًا يقتضي تَعَرُّف حال الغلام واستخراج ما عنده من طاعة أو معصية ، وهذا يتطلب ويحتاج منه إلى إرادة عالية ،وعزيمة قوية ، وإيمان قوي ؛ لكي ينجح في هذا الاختبار ، ويفوز في ذلك الامتحان .

وبعد أن أخبر الراهب الغلام إخبارًا مؤكدًا بـ " إن " والسين الدالة على قرب مدة التنفيس والاستقبال طلب منه ألا يدل عليه إن حدث له هذا الابتلاء في قوله : " فإن ابْتُلِيْتَ فلا تدل عليّ " ، وأتى بأداة الشرط " إن " ، وهي " تستعمل في الشرط غير المقطوع بوقوعه ، أو يكون مما لا يقع إلا نادرًا " [2] ، وعلة ذلك أن الراهب أخبر بابتلاء الغلام إخبارًا مؤكدًا بحسب ما قام عند الراهب وتَوَصَّل إليه ، مما يقتضي وقوع الابتلاء بالغلام حتى جزم به ، وأتى بـ

" إنْ " بعد ذلك باعتبار الواقع وما يظهر في عالم الشهادة ؛ لأن الفراسة قد تخطئ ، والكشف قد يعارض ، أو أنه قصد من الإتيان بـ " إن " التخفيف عن الغلام ، فلا يخاطبه بجملتين تدلان يقينًا على وقوع الابتلاء بالغلام ؛ لئلا
يعيش في الابتلاء قبل وقوعه به [3] .

والفاء الأولى في قول الراهب : " فإنْ ابْتُلِيت فلا تدلّ عليّ " تدل على العطف الذكري الذي يفيد تسلسل الأحداث وتتابعها ، فهي تربط ما دخلت عليه بما سبق عليها ، والفاء

---

[1] مغنى اللبيب ١ / ١٥٨ ،
[2] البلاغة العالية (علم المعاني) / ٩٩ / لعبد المتعال الصعيدي / مكتبة الآداب ، الطبعة الثانية / ١٤١١ هـ - ١٩٩١م ، علم المعاني ١ / ١٧٧ / د / بسيوني فيود .
[3] دليل الفالحين ١ / ١٦٤ .

الثانية لربط الجواب بالشرط ، وهكذا رأينا تسلسل الكلام وترابط جمله ، وتلاحم أجزائه ، ولا غرو فتلك هي سمة وطبيعة البيان النبوي .

وعبر الراهب بالفعل " ابْتُلِي " بصيغة الماضي لفظًا ، لكنه بمعنى الاستقبال ؛ لأن أداة الشرط تفيد تعليق حصول الجواب على حصول الشرط في الاستقبال ، ولعله عدل عن المضارع في سياق الشرط الدال على الاستقبال لفظًا ومعنى إلى الماضي " لتخييل إظهار غير الحاصل – وهو الاستقبال – في صورة الحاصل ، وهو الماضي " [1] .

وبني هذا الفعل " ابْتُلِي " للمجهول كسابقه لنفس العلة في سابقه ، وهي العلم بالفاعل ، وهو الله سبحانه وتعالى .

والغرض البلاغي من النهي في قول الراهب : " فلا تدلّ عليّ " هو النصح والإرشاد ؛ لما يحمله هذا النهي من معاني الموعظة والنصيحة والتوجيه والإرشاد ، وهو نهي لا تكليف فيه ولا إلزام ، والعلة من النهي عن الدلالة على الراهب أن الحرب في ذلك الوقت كانت قائمة بين اليهود والنصارى ، وبين الحكام الطغاة الظلمة والرهبان العَبَدَة ، فنهاه الراهب إن قُبِضَ وعُذِّبَ وسُئِلَ عن شركائه ومَنْ عَلَّمَه ألا يدل عليه ؛ حتى لا يُقْبَض عليه ويُعَذَّب هو الآخر أيضًا [2] .

وفي اقتران جملة جواب الشرط " فلا تدلّ عليّ " بالفاء الرابطة للجواب بالشرط دلالة على ترابط الأسلوب ، وتماسك أجزائه ، وتشابك أطرافه ، والتحام الدلالات ، وترابط المفاهيم .

وفي التعبير بالأسلوب الشرطي " " فإنْ ابْتُلِيت فلا تدلّ عليّ " لون من التشويق ، وضرب من الإثارة ؛ لأن المتلقي حينما يطرق الشرط " فإنْ ابْتُلِيت " سَمْعَه فإن نفسه تتطلع وتتشوق إلى معرفة الجواب ، وتسأل نفسها وتقول : إذا حدث ذلك الابتلاء للغلام فماذا عسى أن يكون ؟ وما هو المطلوب منه وقتئذ ؟ فإذا جاء الجواب بعد ذلك والنفس متشوقة إليه ومهيّأة له وَعَتْه كل الوعي ، وتمكن منها فضل تمكن .

---

[1] جواهر البلاغة / ١٥٣ / للهاشمي / تحقيق : د / يوسف الصميلي / المكتبة العصرية / صيدا / بيروت / ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م .

[2] فتح المنعم ١٠ / ٦١٩ / د / موسى شاهين لاشين / دار الشروق / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .

المبحث الثالث : مداواةُ الغلامِ جليسَ الملكِ ودلالتُه على الراهب :

" وكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ [1] وَالْأَبْرَصَ [2] ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ [3] ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ؟ قَالَ : رَبِّي ، قَالَ : وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ : إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا ، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ " .

لقد وضح لنا النبي – ﷺ – في هذا المقطع من الحديث ما كان عليه الغلام من إبراء الأكمه والأبرص ومداواة الناس من سائر الأمراض ، وذكر لنا موقفه مع جليس الملك ورده بصره عليه ، وموقف الملك الظالم من هذا الصنيع الطيب .

والواو في قوله – ﷺ – : " وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص " استئنافية ، تشعر بأن ما بعده معنى جديد مختلف عما قبلها ، وليس معطوفًا عليه ، يقول المرادي : " وهي الواو التي يكون بعدها جملة غير متعلقة بما قبلها في المعنى ولا مشاركة له في الإعراب " [4] .

و " كان " لا تدل على الماضي المنقطع ؛ لأنها لو كانت الماضي المنقطع لفُهِمَ منها أن الغلام كان يبرئ الأكمه والأبرص و... في الماضي فقط دون الحاضر ، ولكنها هنا تدل

---

[1] الأكْمَه : هو الإنسان الذي يُوْلَد أعمى ، يقال : كَمِنَ بصره يَكْمَه كَمَهًا ، أي عَمِيَ ، وقيل : الأكْمَه : هو من ولد مبصرًا ثم أصابه العمى بعد ذلك . النهاية في غريب الحديث والأثر ٤ / ٣٦٥ / لابن الأثير / تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ، محمود محمد الطناحي / المكتبة العلمية / بيروت / ١٣٩٩ – ١٩٧٩ م .

[2] الأبرص : هو الإنسان الذي وقع في جسده بياض ، والجمع البُرْص . لسان العرب ، القاموس المحيط / مادة : برص .

[3] الأدواء : جمع داء ، وهو اسم جامع لكل مَرَض وعَيْب ظاهرًا كان أو باطنًا . السابق / مادة : دوأ .

[4] الجنى الداني / ١٦٣ / للمرادي / تحقيق : د / فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل / دار الآفاق الجديدة / بيروت / الطبعة الثانية / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

على الاستمرار ، أي الماضي المتصل بالحال ، وهذا يعني أن الغلام كان يبرئ الأكمه والأبرص ويفعل ما يفعل في الماضي ، وما زال يفعل ذلك إلى الوقت الحاضر .

والتعبير بالفعل المضارع " يبرئ " للدلالة على التجدد والحدوث ، أي أن الإبراء كان يحدث من الغلام ويتجدد آنًا بعد آن ، وحينًا بعد آخر .

وفي إسناد الإبراء إلى الغلام مجاز عقلي [١] ، علاقته السببية ؛ لأن الفاعل الحقيقي للإبراء هو الله ، ولكن لما كان الغلام هو السبب في ذلك أسند الإبراء إليه ، وذلك على حد قولنا : شفى الطبيب المريض ، وهذا الإسناد ينبئ عما أودعه الله في الغلام من لطائف وأسرار وكرامات ، وكفى بذلك نعمة وفضلًا من الله سبحانه وتعالى .

واللام كل من " الأكمه " و " الأبرص " للدلالة على الجنس ، أي أكمه وأي أبرص في بلده ؛ لاستحالة أن يكون يفعل ذلك في كل بلاد الدنيا .

وعطفت جملة " يداوي الناس من سائر الأدواء " على جملة " يبرئ الأكمه والأبرص " لإشراكها معها في الحكم الإعرابي وهو الرفع ، حيث إن جملة " يبرئ الأكمه والأبرص " في محل رفع خبر كان وجملة " يداوي الناس " خبر ثان ، ومن أجل ذلك وصلت الجملة الثانية بالأولى بالواو .

وهذا العطف من قبيل عطف العام على الخاص [٢] ، فالجملة الأولى أثبتت للغلام معالجة الأكمه والأبرص فقط على وجه الخصوص ، وخُصّا بالذكر ، لأنهما داءا إعياء وإعضال [٣] ، والجملة الثانية أثبتت له معالجة كل الناس من كل الأمراض بما في ذلك معالجة الأكمه والأبرص ، وفي هذا إفادة للعموم بعد الخصوص تنويهًا وعناية بشأن الخصوص بذكره مرتين مرة وحده بلفظه ، ومرة مندرجًا تحت العام .

وتعريف " الناس " باللام للدلالة على الاستغراق العرفي ، أي الناس الموجودة في بلده ووطنه ؛ لاستحالة أن يداوي كل الناس في جميع بلاد الدنيا وأوطانها .

---

[١] دليل الفالحين ١ / ١٦٤ .
[٢] السابق / نفس الجزء والصفحة .
[٣] السابق / نفس الجزء والصفحة .

وفي التعبير بالفعل " سمع في قوله – ﷺ – : " فسمع جليس للملك كان قد عمي " دلالة على أن الغلام كان قد ذاع خبره ، وانتشر صيته ، وشاع أمره بين الناس ؛ وذلك بسبب إبرائه الأكمه والأبرص ومداواته الناس من سائر الأمراض .

وجاء النبي – ﷺ – بلفظة " جليس " نكرة للدلالة على الإفراد ، إذ المراد به واحد من جلساء المَلِك دون حاجة إلى تعريفه ؛ لأنه لا يترتب على تعريفه فائدة ، ولا يتعلق بتعيينه غرض .

وآثر النبي – ﷺ – لفظة " جليس " دون قعيد ؛ لأن القعود يستعمل فيما فيه لُبْث ومُكْث أما الجلوس فيستعمل فيما ليس كذلك ؛ ولذا يقال : قواعد البيت ، ولا يقال جوالسه ، حيث يدل الجلوس على سرعة التحول والتغير ؛ ولذا يقال : جليس الملك ، ولا يُقال قعيده ، إذ إن من حسن أدب الجليس عدم المُكْث الطويل عند الملك مراعاة وتقديرًا له [1] .

واللام في قوله – ﷺ – : " جليس للملك " للاختصاص ، أي أن هذا الجليس كان خاصة الملك وبطانته وحاشيته الخاصة به .

والتعبير بالفعل " كان " في قوله – ﷺ – : " كان قد عمي " للدلالة على أن العمى الذي أصاب جليس الملك كان قد أصابه منذ زمن وليس وقت ظهور الغلام فقط .

وأكّد النبي – ﷺ – الفعل " عمي " بحرف التحقيق " قد " لتوكيد إثبات العمى لهذا الجليس ، وأن ما أصابه هو العمى الفعلي وليس مرضًا يشبهه أو يدانيه .

والفاء في جملة : " فأتاه بهدايا كثيرة " عاطفة للدلالة على الترتيب والتعقيب ، حيث عطفت هذه الجملة على جملة " سمع جليس للملك كان قد عمي " أي أن إتيان الجليس الغلام بهذه الهدايا وإحضارها له حدث بعد أن سمع به بعد أن سمع بالغلام وخبره مباشرة ذهب وأحضر هذه الهدايا التي سيقدمها له راجيًا قبوله لها ظنًا منه أن الغلام سيشفيه بسبب هذه الهدايا ، وأفادت الفاء أيضًا السببية ، أي أن إتيان جليس الملك بهذه الهدايا للغلام جاء بسبب سماعه به وقد أصابه العمى .

---

[1] البحث صـ ١١ .

والباء فـــي " بهدايا " للدلالة على المصاحبة ، أي أن الجليس أتى الغلام مـــع هـــذه الهدايا ، أو أتاه مصحوبًا بها .

وتنكير كلمة " هدايا " لعدم تعلق الفائدة بتعريفها ، ويحتمل أن يكون تنكيرها للتعظيم ، أي هدايا ثمينة وعظيمة ، ووصفها بـــ " كثيرة " لإيضاح مقدارها وبيان كميتها ، وفـــي هذا إغراء للغلام من قِبَل الجليس ؛ ليلبي له مطلبه ، ويقضي له مأربه .

وعطفت جملة " ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني " على جملة " فأتاه بهدايا كثيرة " بالفاء ؛ لتفيد أن قول الجليس هذه الجملة للغلام حدث بعد إتيانه بهذه الهدايا الكثيـــرة مباشرة وبدون مهلة ، وذلك لأن الجليس متعجل الشفاء وفي ظنه أن الغلام سيـــشفيه لا محالة ولا سيما إذا رأى هذه الهدايا بين يديه وقد عُرِضَت عليه ، ولا سيما أيـــضًا أنهـــا هدايا يسيل لها لعاب كثير من طلاب الدنيا ، وهكذا أتت الفاء ؛ لتكشف عن نفس الجليس ، وتَرُمّ الأحداث ، وتشد بعضها إلى بعض ، وتجعل بعضها يَرْكُض في إثر بعض .

واستخدم الجليس الاسم الموصول " ما " للدلالة على العموم والشمول ، وأكد الجليس هذا العموم وذلك الشمول بلفظة " أجمع " دفعًا لتوهم عدم إرادة العمـــوم والـــشمول ، أي حتى لا يظن الغلام أن الجليس يقصد أغلب الهدايا أو معظمها الذي يسد مسد الكل .

واستخدم اسم الإشارة " هنا " للدلالة على قرب الهدايا من الغلام ، فقد وضعها الجلـــيس بين يديه ، وجعلها أمام ناظريه ؛ ليكون إغـــــراء الغلام بها أكثر ، وجذب انتباهه لهـــا أشد ، ولفت نظره إليها أقوى ، واقترن اســـم الإشارة هنا بـــ " ها " التنبيهيـــة لتنبيـــه الغلام ، ولفت نظره ، وإيقاظ نفسه أولًا ؛ لكي تتلقى ما يلقى عليها بعد ذلك باهتمام جيد وقبول حسن .

واللام في قول الجليس للغلام " ما ها هنا لك " للدلالة على التمليك ، حيث إن الجليس أراد تمليك الغلام لهذه الهدايا العظيمة والكثيرة على سبيل الهبة والهدية .

واستخدم الجليس أسلوب الشرط " إن أنت شفيتني " ؛ لإفادة تعليق تمليك هداياه للغلام بشفائه له ، وعبر الجليس بـــ " إن " دون " إذا " ؛ لأنه لم يكن جازمًا بأن شفاءه – وقد فقد بصره تمامًا – سيكون على يد الغلام ، وإنما كان مترددًا وغير جازم بذلك .

وفي أسلوب الشرط هذا " إن أنت شفيتني " إيجازان : أحدهما بحـــذف فعـــل الـــشرط المُفَسَّر بالفعل " شفى " المذكور ، وكان الأصل " إن شفيتني أنت شفيتني " فلمـــا حـــذف

الفعل انفصل الضمير المتصل به ، وثانيهما بحذف جواب الشرط لفهمه من السياق ودلالة ما قبله عليه ، والتقدير " إن شفيتني أنت شفيتني فلك جميع ما ها هنا من الهدايا " ، وفي هذا الحذف مع دلالة السياق وقرائن الأحوال على المحذوف لون من الإيجاز وضرب من الاختصار ؛ لأن تخلية الأسلوب مما يدل عليه السياق ، وتصفيته مما يثقل كاهله ، ويؤدي به إلى الترهل ، ولا يتعلق بذكره غرض ضَرْب من البلاغة العالية .

وعبر الجليس بقوله : " شفيتني " بصيغة الماضي في سياق الشرط ، والأصل في ذلك أن يكون بصيغة المستقبل ، فيقول : " تشفيني " ؛ حيث إن الشرط يكون للتعليق في المستقبل ، ولكنه عَبَّر بالماضي إظهارًا للتفاؤل ورغبة في حصول الشفاء ، وإبرازًا لغير الحاصل في صورة الحاصل إظهارًا لشدة حرصه على تحقيق وقوعه ، وقوة رغبته فيه .

وإسناد الجليس الشفاء إلى الغلام ليس على سبيل المجاز العقلي بعلاقة السببية ، وإنما ذلك على سبيل الحقيقة ؛ لأن الجليس وقت ذلك القول كان ما زال على كفره الذي يجعله يعتقد ثبوت النفع والضر لغير الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا .

وجاءت جملة " قال : إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله " معطوفة على جملة " قال ما ها هنا لك أجمع ، إن أنت شفيتني " بالفاء للدلالة على الترتيب والتعقيب ، أي أن رد الغلام على العَرْض الذي عرضه عليه الجليس جاء بعده مباشرة بلا مهلة زمنية ، ومترتبًا عليه ، ومسببًا عنه ، وكأن الغلام – وهو الداعي لإثبات الألوهية والربوبية لله وحده – حينما طرق سمعه هذا العَرْض ثارت نفسه وزلزلته ثورة الغضب بسبب هذا المفهوم الخاطئ والاعتقاد الباطل لدى جليس الملك فجاء رَدُّه سريعًا وعلى الفور ؛ ليصحح له هذا الاعتقاد الفاسد.

وبما أن الأمر يمس العقيدة التي يؤمن بها الغلام وقد باشرت سويداء قلبه وخالطت لحمه ودمه فقد جاء رده على الجليس بجملتين مؤكدتين : أما الأولى فهي قوله : " إني لا اشفي أحدًا " ، وأما الثانية فهي قوله : " إنما يشفي الله " .

ولقد أكد الجملة الأولى بـ " إن " وهي تفيد تأكيد نفي إسناد شفاء أي أحد للغلام ، وبالتالي بمفهوم المخالفة فهي تثبت الشفاء لله – عز وجل – وحده إثباتًا مؤكدًا .

واستخدم الغلام أداة النفي " لا " ؛ لأنها تنفي المستقبل [1] ، وذكر ابن القيم أن النفي بها يبدأ من لحظة التكلم ، ويمتد إلى المستقبل ويستطيل [2] ، وهذا ما أراده الغلام ، وقصد إليه ، حيث أراد أنه لا يشفي أحدًا لا في الحاضر ولا في المستقبل ؛ لأن الشافي الحقيقي هو الله – تبارك وتعالى – وحده ، وما الغلام إلا سبب فقط في الشفاء بالدعاء للمَرْضَى .

وعبر بالفعل المضارع " أشفي " للدلالة على التجدد والاستمرار حالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن ؛ لأن رفض الغلام أن يكون هو الشافي أمر متجدد ومستمر كلما طُلِبَ منه ذلك .

وفي مجيء المسند فعلًا " أشفي " تكرار للمسند إليه ، حيث ذُكِرَ أولًا باعتباره اسم " إن " ، وهو ياء المتكلم ، ثم ذُكِرَ ثانيًا باعتباره فاعلًا لهذا الفعل ، وهو الضمير المستتر تقديره أنا ، وفي هذا التكرار لون من التوكيد وتقوية الحكم وتقرير المعنى وتثبيته في ذهن المتلقي .

وفي تنكير المفعول به " أحدًا " دلالة على العموم والشمول ؛ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم والشمول ، أي أن الغلام لا يشفي أي أحد كائنًا من كان .

واستخدم الغلام لفظة " أحد " دون " واحد " ؛ لأن لفظة " واحد " تقبل الزيادة والاستدراك ، فإذا قلنا : لم يحضر أحد ، جاز أن نقول بعد ذلك : بل حضر اثنان أو ثلاثة ، أما لفظة " أحد " فلا تقبل الزيادة ولا الاستدراك ، فإذا قلنا : لم يحضر أحد ، فلا يجوز أن نقول بعد ذلك : بل حضر اثنان أو ثلاثة .

وفُصِلَتْ جملة " إنما يشفي الله " عن جملة " إني لا أشفي أحدًا " ؛ لما بين الجملتين من كمال الاتصال ، حيث جاءت جملة " إنما يشفي الله " مؤكدة ومقررة لمدلول ومضمون الجملة السابقة عليها ، فترك العطف لشدة الترابط والاتصال بينهما [3] ، ويحتمل أن يكون الفصل هنا لشبه كمال الاتصال ، حيث إن الجملة الأولى أثارت سؤالًا

---

[1] الأزهية في علم الحروف / ١٥٠ / لعلي بن محمد الهروي / تحقيق : عبد المعين الملوحي / مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق / الطبعة الثانية / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م ، رصف المباني / ٢٥٨ / للمالقي / تحقيق : د / أحمد محمد الخراط / مجمع اللغة العربية بدمشق / بدون تاريخ .

[2] بدائع الفوائد ١ / ١٣٧ / تحقيق : محمد عبد القادر الفاضلي ، د / أحمد عوض أبو الشباب / المكتبة العصرية / صيدا / بيروت / ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م .

[3] دليل الفالحين ١ / ١٦٤ .

عند الجليس تقديره : فمن يشفي إذا لم تشفِ أنت ؟ فجاءت الجملة الثانية " إنما يشفي الله " كالجواب عن هذا السؤال ، فترك العطف بين الجملتين ؛ لما بين الجملتين من ترابط وثيق كارتباط الجواب بالسؤال ، وهذا من حسن السبك وبديع الرصف .

وفي جملة " إنما يشفي الله " قصر قلب ، حيث قلب الغلام على جليس الملك اعتقاده ، حيث كان يعتقد أن الغلام هو الشافي ، وأثبت الشفاء إثباتًا مؤكدًا للشافي الحقيقي ، وهو الله – سبحانه وتعالى – وحده ، ونفاه نفيًا مؤكدًا أيضًا عن نفسه .

وبما أن اختصاص الله – عزّ وجلّ – بالشفاء أمر ثابت ومعلوم لكونه من الأمور الواضحة والمُسَلَّمات الظاهرة التي لا شك فيها ولا إنكار لدى المؤمنين الموحدين كالغلام فقد استخدم من طرق القصر " إنما " ؛ لأنها لا تدخل إلا على المعاني المأنوسة القريبة من النفوس والواضحة المقررة لدى القلوب ، يقول د / أحمد بدوي : " والأصل فيها أن تأتي في الأمور التي يدعى أنها من الوضوح بمكان " [1] .

وعبر بالفعل المضارع " يشفي " للدلالة على التجدد والاستمرار ، أي أن شفاء الله – عز وجل – للمرضى أمر تجدد ومستمر حالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن ، فكلما مرض مريض شفاه الله تبارك وتعالى .

وحُذِفَ مفعول الفعل " يشفي " لعدم تعلق الغرض به ، ولتوفير العناية للفاعل ، وتوجيه النفوس لإثبات الفعل له وعدم الانشغال عنه بالمفعول لكونه معلومًا ، إذ الغرض الأساسي هو إثبات الشفاء لله – سبحانه وتعالى – من غير تعرض لمن يقع عليه الشفاء ، أو لأن هذا الحذف لإفادة التعميم مع الإيجاز والاختصار ، فيعم شفاء الله – عزّ وجلّ – كل المخلوقات وجميع الكائنات [2] .

وبين كل من الفعل المنفي " لا أشفي " والفعل المثبت " يشفي " طباق سلب " ، فالفعلان من مادة واحدة هي " شفى " ، والأول منفي ، والثاني مثبت ، وتكمن بلاغة هذا الطباق في إيضاح المعنى وتوكيده وتقريره في نفس المتلقي ، هذا بالإضافة إلى إبراز الطباق ما عند الغلام من عجز عن الشفاء وما عند الله من القدرة والقوة على ذلك ، وهكذا فالضد يظهر حسنه الضد . وبضدها تتبين الأشياء ، واستخدم الغلام

---

[1] من بلاغة القرآن / ١٥٩ .
[2] دليل الفالحين ١ / ١٦٤ .

لفظ الجلالة " الله " ؛ لأنه هو الاسم العلم على الذات العلية الجامع لكل معاني الجلال والجمال والكمال ، وإليه مَرَدّ كل أسماء الله الحسنى وصفاته العليا .

ونلحظ هنا أن جواب الغلام على طلب الجليس لم يتعرض للهدايا رغم كثرتها ونفاستها ، وتجاهل أمرها تمامًا كأن لم تكن ؛ لأن الغلام والدعاة المخلصين وأصحاب المقاصد العالية لا يشغلهم حطام الدنيا وهداياها مع ما فيها من بريق وجاذبية يسيل لها لعاب كثير من الناس .

والفاء الداخلة على " إن " في قول الغلام للجليس : " فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك " استئنافية ، أي أن ما بعدها كلام جديد ليس معطوفًا على ما قبلها ، وإنما ذلك من باب العطف الذكري الذي يفيد ترتيب الأحداث وتَرَتُّب بعضها على بعض ، وذكر الدكتور / محمد أبو موسى في شأنها أنها " ترتب قصة على قصة ، أي مضمونًا على مضمون " [1] ، وبهذا فهي ما تنفك عن ربط أجزاء الكلام وتلاحمه وتماسكه .

واستخدم الغلام " إن " الشرطية ؛ لأنه يرى أن إيمان الجليس أمر مشكوك فيه ، ونادر الوقوع ، وغير مقطوع به ؛ لما رأى عليه من تمسك بكفره ، ولما يعلم الغلام أو يتوقع من توابع غير محمودة قد تلحق بهذا الجليس في حالة إيمانه ، ولا غرو في ذلك فقد كان .

وفي قوله : " فإن أنت آمنت بالله " إيجاز بالحذف ، حيث حذفت جملة الشرط وبقت جملة " آمنت " مُفَسِّرة لها ودالة عليها ، وكان الأصل " فإن آمنت أنت آمنت بالله " ، فحذف فعل جملة الشرط ، وانفصل الضمير ، وفي هذا الحذف إيجاز للأسلوب واختصار له .

وعبر بالفعل " آمن " بصيغة الماضي بدلًا من المضارع " تؤمن " إظهارًا لغير الحاصل في صورة الحاصل تفاؤلًا ، ورغبة في تحقيق وقوع الشرط وهو الإيمان للجليس ، فجعله كأنه حدث وأخبر عنه .

---

[1] دلالات التراكيب / ٣٢٩ .

وعبر الغلام بلفظ الجلالة " الله " مظهرًا " في مقام الإضمار ، إذ الأصل " إنما يشفي الله ، فإن أنت آمنت به دعوته فشفاك ، فآمن به فشفاه " ، وإنما جاء الغلام بلفظ الجلالة مظهرًا في مقام الإضمار ، وخالف مقتضى الظاهر تنويهًا بلفظ الجلالة ، واستلذاذ بذكره ، ولكمال العناية به وتمييزه وتوكيده وتقريره في نفس الجليس ، وقوة استقراره وتثبيته في فؤاده ، هذا بالإضافة إلى تربية المهابة في نفس الجليس ، وكذلك لما يوحي به لفظ الجلالة من معاني الجلال والعظمة لله رب العالمين ، ولا يخفى ما في هذا الإضمار كذلك من الإفصاح عن قوة إحساس الغلام بالألوهية والوحدانية لله – عزّ وجلّ – وحده دون سواه .

وعبر الغلام كذلك بقوله : " دعوت الله فشفاك " بلفظ الماضي تفاؤلًا للجليس ، ولشدة رغبة الغلام في هداية الجليس وقوة حرصه على شفائه ؛ ليؤمن بالله ، ويعلن توحيده لله رب العالمين .

وفي أسلوب الشرط في قول الغلام : " فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك " لون من التشويق والإثارة للمخاطب ؛ لأنه حينما يسمع جملة الشرط " فإن أنت آمنت بالله " تتشوق نفسه وتتطلع إلى معرفة الجواب ، فإذا جاءها بعد هذا التشوق وذلك التطلع تقرر لديها وتمكن منها ، وفي هذا تحريك لذهن المخاطب وجذب لانتباهه .

والفاء في قوله – ﷺ – عن الجليس : " فآمن بالله فشفاه الله " عاطفة للدلالة على الترتيب والتعقيب ، ولكنها
عاطفة على محذوف ، والتقدير " فاستجاب الجليس لنصية الغلام فآمن " أي أن إيمان الجليس جاء مرتبًا على ما اشترطه الغلام عليه من الدخول في الإيمان ، وجاء بعده مباشرة وبلا مهلة ، وفي هذا دلالة على سرعة تلبية الجليس لشرط الغلام ، وكذلك فقد جاء شفاء الله للجليس مرتبًا على إيمانه بالله وتاليًا له مباشرة وبلا مهلة زمنية ، ومسببًا عنه ، وهكذا فقد تحققت سرعة استجابة الله – سبحانه وتعالى – لدعوة الغلام كرامة له ، وجاءت المعاني متلاحقة بعضها إثر بعض ، ومترتبة بعضها على بعض ترتب المسبب على السبب والنتيجة على المقدمة ، وأتت مترابطة ترابط العلة بالمعلول .

وقد تكون الفاء في قوله – ﷺ – : " فشفاه الله " عاطفة لجملة " شفاه الله " على جملة أخرى محذوفة لفهمها من السياق ، والتقدير " فآمن بالله ، فدعا الغلام الله له ؛ ليشفيه ، فشفاه الله " ، وفي حذف الشيء مع بقاء القرينة الدالة عليه وفهمه من السياق لون من الإيجاز الذي يكسب الأسلوب روعة وبهاء وتصفية له مما يثقل كاهله ، هذا بالإضافة إلى ما في الحذف من تحريك لمشاعر المتلقي ، وإثارة لذهنه ، حيث يفهم المحذوف من خلال تأمله وتدبره لأحداث القصة .

والفاء قول النبي – ﷺ – عن الجليس بعد أن شفاه الله بسبب دعوة الغلام : " فأتى الملك ، فجلس إليه كما كان يجلس " عاطفة للدلالة على الترتيب والتعقيب ، فهي تشير إلى أن ذهاب الجليس إلى الملك حدث بعد شفائه بسبب دعوة الغلام مباشرة وبلا مهلة ، وجاء مترتبًا عليه ، ومسببًا عنه ، كما تشير أيضًا إلى أن جلوس الجليس إلى الملك حدث بعد ذهابه إليه مباشرة ، وجاء مترتبًا عليه ، ومسببًا عنه ، وهكذا تظهر الفاء الأحداث متسلسلة ومرتبة بعضها بعد بعض ، ومترتبة بعضها على بعض ومسبب عنه ، وهذا من بديع سبك البيان النبوي وبراعة رصفه .

وفي قوله – ﷺ – : " فجلس إليه كما كان يجلس " تشبيه ، حيث شبه النبي – ﷺ – جلوس الجليس إلى الملك بعد شفائه بجلوسه إليه قبل حلول دائه به وفقده بصره ، وفي هذا التشبيه بيان لحال وصورة المشبه وتوضيح و لها .

وحُذِفَ وجه الشبه هنا للدلالة على أن جلوس الجليس بعد شفائه إلى الملك أصبح يشبه جلوسه إليه قبل حلول العمى به تمامًا بتمام وسواء بسواء ، وفي هذا دلالة على أن شفاء الجليس من عماه كان شفاء تامًا حتى أصبح على حالته الصحيحة وكأنه لم يكن قد أصابه العمى من قبل .

والفاء في قوله – ﷺ – : " فقال له الملك : من ردّ عليك بصرك ؟ " عاطفة ، حيث عطفت جملة " قال له الملك " على جملة " جلس إليه كما كان يجلس " ، أي أن سؤال الملك للجليس عمّن رد عليه بصره جاء بعد جلوس الجليس إليه مباشرة وبلا مهلة ، ومرتبًا عليه ، ومسببًا عنه ، ويحتمل أن تكون جملة " فقال له الملك : من ردّ عليك بصرك ؟ " معطوفة على جملة أخرى محذوفة لفهمها من السياق ، والتقدير " فجلس إليه كما كان يجلس ، فنظر إليه الملك ، فرآه قد أبصر كما كان يبصر قبل إصابته بالعمى ،

فقال له الملك : " من ردّ عليك بصرك ؟ " ، وهكذا شأن البيان النبوي يحذف ما يفهم من السياق وقرائن الأحوال إذا اقتضى المقام ذلك ، ولم يوجد غرض يرجح ذكره على حذفه ، ويكثر هذا الحذف في ميدان القصص " حيث يستغنى عن التفصيلات الجزئية التي تعرف من السياق ، وتفهم من قرائن الأحوال ، ففي تخطيها وصول إلى العناصر الجوهرية في القصة وإبرازها جلية واضحة ، وفي تخطيها أيضًا حث للمخاطب ، وتحريك لمشاعره ، وإثارة لذهنه ، إذ يفهم تلك المشاهد المطوية ويقف عليها من خلال تأمله وتدبره أحداث القصة ووقوفه على سياقها وقرائن أحوالها " [1] . هذا بالإضافة إلى أن هذا الحذف يجعل القصة قادرة على الإيحاء الملهم الذي يتيح الفرصة للقارئ ليستنتج ويحلل ، ويشق بمخيلته آفاقًا من التصوير والتفكير ، ولا يخفى ما في هذا الحذف كذلك من صيانة لذهن المتلقي عن التشتت وشغله بالأمور غير الجوهرية .

والاستفهام في قول الملك للجليس حينما رآه قد أبصر " له الملك : من ردّ عليك بصرك ؟ " قد خرج عن معناه الحقيقي – وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل – إلى معنى آخر بلاغي وهو التعجب ، لأن الملك حينما رأى جليسه قد أبصر وكان يظن ألا يبصر بعد عماه تعجب من عودة بصره إليه ، ووجه ذلك التعجب أن سؤال الملك للجليس عمّن ردّ إليه بصره يستلزم جهله بمن ردّ بصره عليه ، وجهله بذلك يستلزم التعجب والدهشة .

وكلمة " ربي " في إجابة الجليس على الملك إما أن تكون فاعلًا لفعل محذوف دل عليه ذكره في السؤال ، ويكون التقدير " رده ربي " ، وإما أن تكون مبتدأ وجملة الخبر محذوفة لدلالة السؤال عليها أيضًا ، ويكون التقدير " ربي رده " وفي كلتا الحالتين إيجاز بالحذف اختصارًا للأسلوب مما يثقل كاهله مع وجود ما يدل عليه عند حذفه ، وكفى بالإيجاز والاختصار بلاغة للأسلوب .

واختار الجليس لفظة " ربي " ، ولم يقل : " إلهي " لدلالة كلمة " رب " على معنى التربية والإنعام ، أي رد عليّ بصري ربي المنعم المتفضل المربي واهب النعم ، ومنها نعمة عودة بصري إلي .

---

[1] علم المعاني ٢ / ١٩٤ / د / بسيوني فيود .

ونلحظ هنا أن الجمل الثلاث : " قال : ربي " ، و " قال : و لك رب غيري ؟ " ، و " قال : ربي وربك الله " جاءت كل واحدة منها مفصولة عن سابقتها ، وسبب ذلك هو ما بين كل جملة وسابقتها من شبه كمال الاتصال ، حيث إن كل جملة من هذه الجمل الثلاث جاءت جوابًا عن سؤال اقتضته وأثارته الجملة السابقة عليها ، وكأن سائلًا سأل وقال : " وبماذا أجاب الجليس الملك على سؤاله له ؟ " " من ردّ عليك بصرك ؟ " فجاءت جملة " قال : ربي " ، فسأل السائل قائلًا : " وبماذا ردّ الملك على جواب الجليس ؟ " ، فجاء الجواب أنه ردّ سائلًا : " قال : و لك رب غيري ؟ " ، فسأل السائل قائلًا : " وبماذا ردّ الجليس على الملك ؟ " فجاء الجواب " قال : ربي وربك الله " ، يقول الإمام عبد القاهر معلقًا على الفصل في قوله تعالى : " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ " [١] : " فلما كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم : " دخل قوم على فلان فقالوا كذا " أن يقولوا : " فما قال هو ؟ " ، ويقول المجيب : " قال كذا " ، أُخْرِجَ الكلامُ ذلك المُخْرَج " [٢] . وهذا اللون من الكلام يكثر في الحوار ، وخاصة الحوار المتضمن جدالًا وانفعالًا وحدّة وتحفُّزًا وإثارة ومغالبة [٣].

والاستفهام في قول الملك للجليس : " و لك رب غيري ؟ " إنكاري [٤] ، فالملك ينكر على جليسه اتخاذَه اللهَ – سبحانه وتعالى – ربًّا غيره ، ويحسب بجهله وظلمه أن ما فعله جليسه أمرًا منكرًا ، وذلك حسب شرع الملك الباطل واعتقاده الفاسد ، وفي هذا الإنكار لون التعجب ، فالإنسان لا ينكر غالبًا إلا ما يتعجب منه ؛ ولذلك " فالتعجب كثير

---

[١] الذاريات : ٢٤ – ٢٨ .
[٢] دلائل الإعجاز / ٢٤٠ / تحقيق : محمود محمد شاكر / مطبعة المدني / القاهرة ، دار المدني / جدة / الطبعة الثالثة / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .
[٣] أسرار الفصل والوصل / ١١٩ / د / صبّاح عبيد دراز / مطبعة الأمانة / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
[٤] دليل الفالحين ١ / ١٦٥ .

الورود مع الإنكار ؛ لأن الأمر إذا كان محل إنكار فقد صار مدعاة للعجب والتعجب ، ومن هنا كانت صلة التعجب بالإنكار قوية " [1] .

وفي جملة الاستفهام هذه إيجاز واختصار بحذف همزة الاستفهام لفهمها من سياق الأسلوب ، والأصل " أَوَلَك رب غيري ؟ " .

وفي قول الجليس للملك : " ربي وربك الله " قصر قلب [2] بتعريف الطرفين ، حيث إن الملك الظالم الطاغي يعتقد أنه هو الرب ، فجاء الجليس بهذه الجملة وقلب وعكس عليه اعتقاده ، وأثبت الربوبية لله لا للملك ، وجاءت جملة القصر هذه كالشرارة التي انبعث منها بطش الملك وانتقامه ، فصب جام غضبه على المؤمنين الموحدين ابتداء بالجليس ، ومرورًا بالراهب والغلام وجمهور الموحدين ، وانتهاء بالأم وصبيها الرضيع .

والفاء في جملة " فأخذه " عاطفة للدلالة على الترتيب والتعقيب ، أي أن أخذ الملك للجليس وبداية بطشه به وتعذيبه له كان بعد إخبار الجليس له مباشرة بأن الله – عز وجل – هو رب الجليس ورب الملك ، ووُجِدَ مرتبًا عليه ، و لا يخفى ما في الفاء من الدلالة على السببية ، حيث جاء ردّ فعل الملك مسببًا على إخبار الجليس له .

والتعبير بالمضارع " يعذِّبه " للدلالة على التجدد والاستمرار ، ويرشح ذلك ويعضده قوله – ﷺ – قبل ذلك : " فلم يزل " أي استمر ، وهذا يوحي بأن تعذيب الملك للجليس كان متجددًا باستمرار آنًا فآن ، وحالًا فحال بأنواع العذاب المختلفة وصوره المتعددة ، وتلك هي هِجِّيرى وعادة وحال الملوك الطغاة الجبارين ، وتلك شِنْشِنة أعرفها من أَخْزَم.

والتعبير بـ " حتى " في قوله : – ﷺ – " فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام " ؛ للدلالة على الغاية ، أي أن تعذيب الملك للجليس مرّ بمراحل متعددة وصور متنوعة ، واستمر إلى غاية معينة ، وهي دلالة الجليس على الغلام ، وفي هذا دلالة على قوة العذاب الذي وقع على الجليس ، وشدة معاناة الألم التي عاناها .

---

[1] الاستفهام بين النحو والبلاغة / ١٦٨ / د / طاهر قطبي / مركز الحضارة العربية / القاهرة / الطبعة الأولى / ٢٠٠٨ م .

[2] دليل الفالحين / ١٦٥ .

وحذف الفاعل وبُنِيَ الفعل للمجهول في قوله – ﷺ – : " فجيء بالغلام " ؛ لأن الفاعل هنا لا يتحقق بذكره غرض معين ؛ لأن المقصود هو الإتيان بالغلام وإحضاره بصرف النظر عمَّن أتى به وقام بإحضاره .

وكان مقتضى الظاهر هنا إن يذكر الغلام مضمرًا لسبق ذكره صريحًا في الجملة السابقة ، ولكنه ذُكِرَ هنا صريحًا خشية اللبس ودفعًا للإيهام ؛ إذ لو قال النبي– ﷺ – : " فجيء به " لظن المتلقي أن الضمير في " به " يعود إلى الجليس لا الغلام [1] .

والفاء في جملتي " فجيء بالغلام ، فقال له الملك : أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص ... " عاطفة للدلالة على الترتيب والتعقيب ، أي أن الجليس بعد أن دل على الغلام أحضره الملك مباشرة على وجه السرعة ، وبعد أن أحضره قال له الملك : كذا وكذا مباشرة على وجه السرعة أيضًا ، هذا بالإضافة إلى ما توحي به الفاء من اتصال زمن الفعل السابق عليها بزمن الفعل الداخلة هي عليه ، وكذلك ما تشير إليه من الدلالة على السببية ، وأخيرًا وليس آخرًا ما تشير إليه الفاء هنا من أن " الكلام لم يُبْنَ على أساس أن تكون الجملة الثانية متولدة من الأولى ، وموصولة بها بهذه الر ابطة ... وإنما هي مرتبطة بها بالفاء التي تعطفها عليها عطف العلة على المعلول " [2] .

ونادى الملك الغلام بأداة نداء القريب " أي " وبالبنوة فقال : " أي بني قد بلغ من سحرك أنك تبرئ الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل " ، وتلك هي الصيغة التي ناداه الراهب بها قبل ذلك في قوله له : " أي بني أنت اليوم أفضل مني " ، وجاء هذا النداء " على سبيل التلطف به ، أو على ما جرت العادة من مخاطبة الكبير للصغير " [3] . ولعل الملك ناداه بهذه الصيغة جذبًا واستقطابًا واستمالة لقلبه إلى الباطل ، ودغدغة لعواطفه لعله يلين له ، ويرجع عن طريقه القويم الذي اتبعه وصراطه المستقيم الذي مضى فيه وهذا من دهاء وذكاء الملوك ، ولكن ليت ذلك كان في الخير .

---

[1] السابق / نفس الجزء والصفحة .
[2] دلالات التراكيب / ٣١٩ .
[3] دليل الفالحين ١ / ١٦٥ .

وأكد الملك كلامه للساحر بحرف التحقيق والتوكيد " قد " لما سمعه عنه وشاهده من أمر جليسه من ردّ بصره عليه بعد عماه ، ولذيوع صيته ولاسيما بعد قتله الدابة التي حبست الناس ، وغير ذلك من الكرامات التي أجراها الله على يديه .

وسمى الملك الكرامات التي أجراها الله – سبحانه وتعالى – على يدي الغلام من قتل للدابة ، وإبراء الأكمه والأبرص ، ومداواة الناس من سائر الأمراض ، سمى ذلك سحرًا ؛ لأنه يريد أن يخفي هذه الحقائق ويضيع تلك المبادئ التي استقرت في نفس الغلام ، ويريد أن يموّه عليه ويعرّفه بأن هذه الكرامات ليست من عند الله – عز وجل – وإنما هي من السحر الذي تعلمه وبرع فيه إلى حد الوصول لهذه الخوارق .

وعبر الملك بالفعل " تبرئ " بصيغة المضارع للدلالة على استحضار صورة الإبراء العجيبة الغريبة وإبرازها أمام المخاطب كأنه يشاهدها ماثلة أمام عينيه ، ويراها تحدث أمام ناظريه ؛ وذلك لأنها صورة عجيبة وحادثة غريبة بديعة.

وقول الملك للغلام " وتفعل وتفعل " كناية عن كثرة تصرفاته ومزيد أعماله " [1] ، ويعضد ذلك التعبير بالفعل " بلغ " الذي يوحي بغاية الأمر وبلوغ الكمال ، فقد سمع الملك بأن للغلام أفعالًا كثيرة وأعمالًا عديدة ، وفي هذا التعبير الكنائي إيجاز واختصار يغني عن تفصيل متعدد قد يصعب حصره ، فهو تعبير ينقل المعاني الكثيرة الوافية في لفظ قليل ، وفي هذا التعبير أيضًا إشارة إلى خُبْث الملك ، إذ لعله خشي أن يكون للغلام لم تصل إلى علمه ، فجعل الكلام مفتوحًا لكل تصورات الغلام .

ووصلت قوله " وتفعل وتفعل " بجملة " تبرئ الأكمه والأبرص " لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين ، وذلك لاتفاق الجملتين في الخبرية ، ولاتفاقهما كذلك في الفعلية ونوع صيغة الفعل ، وكون المسند إليه فيهما واحدًا ، وهو الضمير العائد إلى الغلام ، وفي هذا ترابط للأسلوب وتماسك لأجزائه ، وقوة سبكه ورصفه .

وعطف " تفعل وتفعل " على " تبرئ الأكمه والأبرص " من باب عطف العام على الخاص ؛ لأن إبراء الأكمه والأبرص داخل ضمن فعل الغلام ، والغرض من ذلك هو إفادة

---

[1] السابق / نفس الجزء والصفحة .

تعميم الحكم بعد تخصيصه ، هذا بالإضافة إلى العناية والاهتمام والتنويه بشأن الخاص ، وذلك بذكره مرتين ، مرة بلفظه ، ومرة أخرى مندرجًا تحت العام .

ولقد ردّ الغلام على الملك هنا بإثبات الشفاء لله – عز وجل – ونفيه عن نفسه هو نفس الرد الذي ردّ به الغلام قبل على جليس الملك حينما أتاه بالهدايا الكثيرة ، وقدمها له في مقابل أن يشفيه ، وذلك في قوله – ﷺ – : " فقال إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله " ، وفي هذا الرد قصر قلب ، حيث إن الملك أراد أن يقرر الغلام بإثبات الشفاء له ، وكأنه يريد أن يثير في نفس الغلام لونًا من التكبر ونوعًا من الزهو والخيلاء ، فجاء الغلام وقلب على الملك اعتقاده ، فنفى الشفاء عن نفسه ، وأثبته لله وحده سبحانه وتعالى .

وعطفت جملة " قال إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله " على جملة " أي بُنَيّ قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل " بالفاء للدلالة على الترتيب والسرعة ، أي أن رد الغلام على الملك جاء بعده مباشرة وبلا مهلة ، وأتى مترتبًا عليه ، ومسببًا عنه ، إذ إيمان الغلام الثابت القوي بالله – سبحانه وتعالى – دفعه إلى هذا الرد مباشرة دون مبالاة بما يكون من بطش هذا الملك الظالم بعد ذلك .

وبما أن جواب الغلام على الملك بقوله : " إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله " هو نفس جوابه الذي ردّ به على جليس الملك قبل ذلك حينما أتاه بالهدايا الكثيرة ، وقدمها له في مقابل أن يشفيه ، وقد سبق ذكر ما تضمنه هذا الجواب من أسرار بيانية ولطائف بلاغية [1] ، فلا داعي لإعادة ذكر ذلك مرة أخرى ، وفي إجابة الغلام على الملك بنفس ما أجاب به جليسه دلالة على رسوخ وقوة عقيدة الغلام ؛ ولذا فقد استوى الناس عنده ، فأصبح يجيب الملك بما يجيب به جليسه وغيره من الناس دون وَجَل أو خوف .

وأخبر النبي – ﷺ – عن رد فعل الملك على جواب الغلام بقوله : " فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب " ، وهو نفس رد فعله على جواب الجليس حينما أخبره أن الذي ردّ عليه بصره هو الله عز وجل ، إلا أن الملك هناك عَذَّبَ الجليس حتى دلّ على الغلام ، وهنا عَذَّبَ الغلام حتى دلّ على الراهب ، وهكذا فقد صور الأسلوب بطش الملك

---

[1] البحث صـ ٢٦ ، ٢٧ .

بالغلام هنا بنفس صورة بطشه بالجليس قبل ذلك ؛ وذلك لأن كلًّا من الجليس والغلام قد أجابا على الملك بما يفيد إثبات الألوهية والربوبية لله – تبارك وتعالى – وحده لا الملك ، فقال الجليس : " ربي وربك الله " ، وقال الغلام : " إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله " .

فقضيتهما معه واحدة ، ورد فعله عليهما واحد ، لأن أهل الجبروت والظلم والطغيان –وهذا الملك واحد منهم – ليس لديهم القدرة العقلية على إقناع الخصم أو إفحامه ؛ ولذا فهم يلجئون دائمًا إلى البطش والتعذيب ، وذلك منهجهم وديدنهم وتلك سنتهم وهِجِّيراهم .

وعَطْفُ جملة " أخذه " على جملة " قال إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله " بالفاء يدل على أن أخذ الملك للغلام لتعذيبه جاء بعد إثبات الغلام الشفاء لله – عز وجل – ونفيه عنه مباشرة ، وبلا مهلة ، وهذا يوحي بسرعة شروع الملك في البطش بالغلام وتعذيبه .

وقوله – ﷺ – : " فلم يزل " يدل على الاستمرار ، والتعبير بالمضارع " يعذِّب " يدل على التجدد والاستمرار واستحضار صورة التعذيب العجيبة ، واستخدام " حتى " للدلالة على الغاية ، أي أن غاية تعذيب الملك للغلام هي الدلالة على الراهب .

فإن قيل : كيف دل الغلام على الراهب بالقتل وكان قد أوصاه ألا يدل عليه إن ابْتُلِيَ بقوله له قبل ذلك : " وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ " ؟ أجيب على ذلك بأن الغلام كان يود ألا يدل على الراهب ؛ لأنه علم أنه إذا أخبر عنه فإن الراهب سَيُقْتَل ، لكن الغلام بحكم بشريته لم يستطع أن يصمد أمام تعذيب وبطش الملك الجبار الطاغية حتى دلّ على الراهب ، وليست دلالة الغلام على الراهب هذه خيانة ؛ لأن الغلام ما دلّ عليه حبًا واختيارًا ، وإنما دلّ عليه كرهًا واضطرارًا ، والإنسان إنما يعذر إذا سُلِّطَ عليه شيء فوق طاقته وأكبر وأعظم من قدرته ، أو أن الغلام – حينما دل على الراهب – لم يكن مُكَلَّفًا ؛ لأنه لم يبلغ الحلم ، وربما كان الغلام مُكَلَّفًا ولكنه لم يعلم ولم يقع في حسبانه أن الراهب سَيُقْتَل ، ولا يلزم من دلالته عليه قتله ، أو يجاب على ذلك بأنه لك

يرد في الحديث ما يفيد أن الغلام التزم للراهب بألا يدلّ عليه ، والله – سبحانه وتعالى – أيّ ذلك كان [1] .

[1] المفهم ٧ / ٤٢٥ ، إكمال إكمال المعلم ٧ / ٣٠٦ ، مُكَمِّل إكمال المعلم ٧ / ٣٠٦ .

المبحث الرابع : فتكُ الملكِ بكلٍّ من الراهب والجليس :

" فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ ، فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ [1] ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ [2] ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ " .

يبين لنا الهادي البشير والسراج – ﷺ – موقف هذا الملك الظالم من كلٍّ من الراهب أستاذ الغلام في العقيدة الصحيحة وجليس الملك تلميذ الغلام في اعتناق تلك العقيدة ، والإيمان بها ، والصبر والتحمل والتضحية من أجلها ، حتى لو كان الثمن هو الشَّق بالمنشار .

والفاء في جملة " فجيء بالراهب " عاطفة لهذه الجملة على جملة " دلّ على الراهب " ، للدلالة على الترتيب والتعقيب ، أي أن المجيء بالراهب حدث بعد الدلالة من الغلام عليه مباشرة وبلا مهلة ، وجاء وترتبًا عليه ومسببًا عنه ، فبجرد أن دلّ عليه الغلام صدر له الأمر من الملك فورًا بالمجيء به ، ويحتمل أن تكون الفاء عاطفة على محذوف ، والتقدير " فدل عليه الغلام ،فصدر له الملك بالإتيان به ، فكلّف من يقوم بهذا الأمر ، فامتثلوا لأمر الملك ، فذهبوا إلى الراهب ، فجاءوا به " ، لكن الفاء طوت هذه الأحداث المحذوفة لفهمها من السياق ، وتركيزًا على الأحداث الجوهرية بصرف النظر عن غيرها .

وبُنِيَ الفعل " جيء " للمجهول وحُذِفَ الفاعل لعدم تعلق العرض بذكره وتعيينه ، ؛ فَذِكْر من جاء بالراهب لا يحقق فائدة ولا غرضًا معينًا ، ولا يعني المتلقي بشيء ، هذا بالإضافة إلى ما في حذفه من الإيجاز والاختصار للأسلوب .

والباء في " بالراهب " للتعدية والنقل ، حيث جعلت الفاعل مفعولًا ، وأوصلت معنى الفعل اللازم " جاء " إلى المفعول به " المفعول به .

وذكر الراهب هنا صريحًا ، وان الظاهر يقتضي ذكره مضمرًا لسبق ذكره صريحًا في جملة " دلّ على الراهب " لأمن اللبس ؛ حتى لا يظن البعض أن الضمير فيما لو قيل : "

---

[1] المئشار : بالهمزة في رواية الأكثرين ، ويجوز تحقيق الهمزة وقلبها ياء ، وروي " بالمنشار " بالنون ، وهما لغتان صحيحتان . دليل الفالحين ١ / ١٦٦ . وهو آلة مسننة من الصلب يشق بها الخشب وغيره ، والجمع مناشير . المعجم الوسيط / مادة : نشر .

[2] مَفْرق الرأس : وسطها الذي يُفْرَق فيه الشعر . لسان العرب / مادة : فرق .

فجيء به " يعود إلى الغلام وليس الراهب ، وهذا من وضوح للأسلوب الذي يحقق الإفهام للسامع .

وعطفت جملة " قيل له : ارجع عن دينك " على جملة " جيء بالراهب " بالفاء أيضًا للدلالة على أن القول الموجّه للغلام بالرجوع عن دينه جاء مرتبًا على المجيء به مباشرة ، وكأن زمن الفعل " جيء " جاء متصلًا بزمن الفعل " قيل " ، فبمجرد أن جيء بالغلام فوجئ بهذا القول ، وهذا يدل على ارتفاع ثورة الملك ، وأنه طار عقله ، وجُنَّ جُنُونُه .

والأمر الموجه للغلام في جملة " ارجع عن دينك " من قِبَل حاشية الملك المبلغين بتنفيذه من قِبَل الملك على حقيقته للدلالة على الاستعلاء والوجوب والإلزام ، ففيه استعلاء الملك بجبروته وبطشه وطاغوتيته ، وفيه إلزام

وتكليف للراهب ؛ لأنه ترتب على الامتناع عن تنفيذه النشر والشق بالمنشار .

وجاء التعبير عن رفض الراهب الامتثال للرجوع عن دينه بالفعل " أبى " دون " امتنع " ؛ لدلالة الإباء على شدة الامتناع ، فكل إباء امتناع ، وليس امتناع كل إباء ، وفي هذا دلالة على مبالغة الراهب في رفضه لطلب الرجوع عن دينه إلى دين الملك ، الأمر الذي يدل على قوة تمسك الراهب بالدين الذي وصل إليه عن طريق الغلام ، وهو الوحيد لله رب العالمين سبحانه وتعالى ، وهكذا دائمًا وأبدًا يكون الإيمان حينما يحل بنوره وحلاوته في قلب العبد ، فإنه تزول الجبال الراسيات ولا يزول ، وما أمر بلال بن رباح وعمار بن ياسر – وغيرهما كثير وكثير – منا ببعيد ولا مجهول .

وعطفت جملة " دعا بالمئشار " على جملة " أبى " بالفاء للدلالة على أن طلب ذلك الملك الطاغية لإحضار المئشار لشق الراهب به صدر بعد رفض وإباء الراهب الرجوع عن دينه مباشرة وبلا مهلة ، وجاء مترتبًا عليه ومسببًا عنه ، ولجوء الملك لهذا الانتقام الغاشم الظالم قليل على قِصَر باعه وجزه وقلة حكمته ، وهكذا حال أهل الطغيان حينما يعجزون عن إفحام الخصوم بالحجة فإنهم يلجئون إلى القوة والتعذيب ، وذلك دأبهم وسبيلهم في كل عصر ومصر .

وتعريف " المئشار " باللام للدلالة على العهد الذهني ، حيث يراد به فرد مبهم من أفراد الحقيقة باعتبار عهديته في الذهن ، وحيث لم يتقدم لمدخولها ذكر صريحًا ولا كنائيًّا .

وعطفت جملة " وَضَعَ المئشار في مفرق رأسه " على جملة " دعا بالمئشار " بالفاء للدلالة على أن وَضْع المئشار في مفرق رأس الراهب بعد إحضار المئشار مباشرة ، وبدون مهلة ،وترتبًا عليه ، ومسببًا عنه .

وفي إسناد الفعل " وَضَع " إلى الضمير العائد إلى الملك مجاز عقلي بعلاقة السببية ؛ لأن الذي يباشر هذا الفعل هو أحد أفراد حاشية الملك وبطانته الفاسدة بأمر من الملك ، ولكن لما كان الملك هو الآمر بذلك والسبب فيه أُسْنِدَ الفعل إليه ، وفي ذلك إيحاء بإصرار الملك على هذا الفعل الشنيع واهتمام منه به حتى أصبح كأنه هو المباشر للفعل بنفسه .

وذُكِرَ المئشار صريحًا مظهرًا ، وكان الظاهر يقتضي ذكره مضمرًا لسبق ذكره صريحًا في جملة " دعا بالمئشار " السابقة ، وإنما جاء التعبير على خلاف مقتضى الظاهر ، فأُظْهِرَ صريحًا زيادة في تمكين وتثبيت وتقرير هذه الصورة البشعة في ذهن المتلقي ، وفي هذا زيادة في الشناعة ، ومبالغة في تسجيل هذا الفعل الشنيع الفظيع على هذا الملك الضِّلِّيْل .

واختيار حرف الجر " في " الدالة على الظرفية في قوله – ﷺ – : " في مفرق رأسه " بدلًا من " على " الدالة على الفوقية لدلالة الظرفية على شدة التنكيل والجبروت والحنق والغيظ الذي كان يجول وصول في صدر هذا الملك الطاغية ، وفي ذلك استعارة تبعية ،حيث شبه مفرق الرأس بالظرف بجامع التمكن في كم ، ثم استعير لفظ " في " وهو جزئية من جزئيات المشبه به واستعمل في المشبه .

وفي جملتي " فوضع المئشار في مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه " إيحاء بشدة الانتقام وقوة البطش ، ومبالغة في التنكيل ، وسرعة في الإجهاز على الراهب والفتك به ، وبشاعة وفظاعة في صورة القتل ؛ لكي يكون الراهب عبرة لغيره ، عسى غيره أن يرجع وينزجر ويرتدع ، ولكن هيهات هيهات أن تستسلم أو حتى تضعف قوة الحق الصراح الواضح أمام جبروت وظلام وظلم الباطل .

وفي التعبير بـــ " حتى " دلالة على الغاية ، أي أن الشق استمر إلى غاية ، هي وقوع شقّي الراهب على الأرض ، وفي هذا دلالة على أن هذا الشق مرّ بمراحل متتاليـــة منـــذ بدء الشَّقّ إلى وقوع شقّي الراهب وسقوطهما على الأرض ، وفي ذلـــك مـــن البـــشاعة والشناعة والفظاعة ما يعجز القلم عن وصفه ، ويحار العقل في تصوره وإدراكه .

وعبر النبي – ﷺ – بالفعل " وقع " دون " سقط " ، ولعل ذلك لأن الوقوع يكون علـــى الأرض ، أي قريبًا منها ، أما السقوط فيكون من علو شاهق ، هـــذا بالإضـــافة إلـــى أن السقوط معنوي والوقوع حسي .

وبين كل من " شَقَّ " و " شِقّاه " جناس اشتقاق [1] ، فكلمة " شَقَّ " فعـــل مـــاض مـــا الشَّقّ بمعنى الصَّدْع ، وكلمة " شِقّاه " مثنى " شِقّ " بمعنى جانب ونصف مضافة إلى هاء الضمير العائد إلى الغلام ، واللفظان يرجعان إلى أصل اشتقاقي واحد ، وتبرز بلاغة هذا الجناس في التناغم الموسيقي الناتج عن تجانس اللفظين ، وهو تناغم تطرب له الأذن ، وتهش له النفوس ، وتهتز له أوتار القلوب ، هذا بالإضافة إلى ما يضفيه الجناس علـــى المعنى من وضوح وترابط ، وعلى الألفاظ من عذوبة وجمال .

وعطفت جملة " جيء بجليس الملك " بـــ " ثم " للدلالة على الترتيب والتراخـــي ، أي بمهلة ، أي أن المجيء بالجليس كان بعد شقّ الراهب بمهلة زمنية ، ولعل هذه المهلـــة لكي يتروى الغلام – وقد رأى ما قد حدث للراهب – ويفكر ويراجـــع عقلـــه عـــسى أن يتراجع عما يؤمن به ، أو حتى يتشكك فيما يعتقده ، ولكن أنى له ذلـــك وقـــد خالطـــت بشاشة الإيمان قلبه ، وأضاء نوره فؤاده ؟ ولكن ها هو ثبات وصمود الحق أمام خَـــوَر وضعف الباطل .

---

[1] جناس الاشتقاق : هو أن يرجع اللفظان إلى أصل اشتقاقي واحد . ينظر : معترك الأقران ١ / ٣٠٤ / للسيوطي / تحقيق : أحمد شمس الدين / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م ، علم البيع / ٢٨٩ / د / بسيوني فيود ، دراسات منهجية في علم البديع / ٢١٤ / د / الشحات محمد أبو ستيت / دار خفاجي / قليوبية / الطبعة الأولى – ١٩٩٤م .

ومن يتأمل قوله النبي – ﷺ – : " ثم جيء بجليس الملك ، فقيل لـه : ارجـع عـن دينك ، فأبى " ، فوضع المئشار في مفرق رأسه ، فَشَقَّه حتى وقع شقاه " يجد أن موقف الملك من جليسه هو نفس موقفه من الراهب ؛ ولعل ذلك لأن العقيدة عند كل من الراهب والجليس واحدة ، وهي الإيمان بالله رب العالمين وحده ، والمبدأ عند هما واحـد وهـو الصمود والثبات على هذه العقيدة الصحيحة .

وفي إضافة " جليس " إلى الملك دلالة على التعظيم ، أي أن هذا الجليس كان عظيمًـا بين قومه بعظمة هذا الملك الذي بنى عظمته على إذلال العباد واستعبادهم ، ويحتمـل أن يكون في تلك الإضافة دلالة على التحقير ، لأن هذا الملك الطاغية الظالم المتجبر رجـل حقير بمخالفته الحق وادعائه الألوهية من دون الله .

وبُنِيَ الفعل " قيل " للمجهول ، وحذف الفاعل لعدم تعلق الفائدة بذكره ، وجاء الأمـر الموجّه للجليس " ارجع عن دين " بنفس الصيغة التي وُجِّه بها إلـى الراهـب ، وعلـى سبيل الحقيقة والتكليف والإلزام والاستعلاء أيضًا ، وكذلك جاء التعبير بالفعـل " أبـى " دون " امتنع " لدلالة الإباء على شدة الامتناع ، والتعبير ب " في " الدالة على الظرفيـة الدالة على شدة التمكن والتنكيل دون " على " الدالة على الفوقية ، والتعبير بـ " حتى " الدالة على الغاية ، كل ذلك وغيره إلى آخر الفوائد واللطائف والأسرار التي ذُكِرَتْ فـي التعليق على موقف هذا الملك الظالم الكافر المدعي الألوهية من ذلـك الراهـب العابـد الموحد لله تبارك وتعالى ، والتي رأيت عدم إعادتها هنا تفاديًا للتكـرار غيـر المفيـد ، وخشية من الإطالة التي قد يمل منها القارئ .

وزاد التعبير هنا في موقف هذا الملك العنيد من جليسه بذكر متعلق شبه الجملة " به " المتعلق بالفعل " شَقَّ " ، ولعل هذه الزيادة جاءت لزيادة حدة ثورة الغضب التـي أَلَمّـتْ بهذا الملك الطاغية تجاه جليسه وأمين سره ، وصاحب الحظوة لديه ، لأنه ما كان يتوقع منه الخروج عن عقيدته الفاسدة هذه ، والدخول في تلك العقيدة الصحيحة القائمة علـى إفراد الله – سبحانه وتعالى – بالألوهية .

والباء هنا في " به " للدلالة على الاستعانة ، أي أن الملك شَقَّ الجلـيس حتـى وقـع شِقّاه مستعينًا بالمنشار .

والمتأمل في تلك الجمل التي سجلت على هذا الملك الظالم موقفيه من كلٍّ من الراهب العابد الموحد وجليسه وأمين سره يجد أنه أتت معطوفة بالفاء للدلالة على أن أحداث هذين الموقفين أتت مرتبة بعضها بعد بعض ، وجاءت متتالية ومتوالية على وجه السرعة ، وأتت مسببًا بعضها عن بعض ، وهذا توالت الأحداث مترابطة متسلسلة ، وجاءت في شكل لقطات سريعة واضحة التسلسل ، كل ذلك وغيره يصور يفصح عن ثورة وبركان الغضب المشتعل المتأجج في صدر هذا الملك الطاغية الذي طار عقله ، وفقد صوابه ، وجُنَّ جُنونه ، حتى جاء انتقامه شديدًا غاشمًا ، وأتى بطشه قويًا ظالمًا .

المبحث الخامس : محاولات الملك الفتك بالغلام والتخلص منه :

" ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ [1] مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وكَذَا ، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ [2] ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ ، فَقَالَ : اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَرَجَفَ بِهِمِ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ قَالَ : كَفَانِيهِمُ اللهُ ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ [3] ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ : اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَانْكَفَأَتْ [4] بِهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ " .

يوضح لنا النبي – ﷺ – في هذا المقطع كيف لجأ الملك الظالم الكافر إلى القوة والفتك بالغلام ، وكان الأولى والأجدر به – لو كان عاقلًا – أن يلجأ إلى الحوار الهادئ المقنع والحجة الواضحة البيِّنة ، فيرد على الدليل بالدليل ، ويقرع الحجة بالحجة ، ويكون الفوز والانتصار لمن قوي برهانه ، وأقنعت حجته خصمه ، ولكن أنَّى له ذلك وعقيدته فاسدة ، وبرهانه ضعيف وخائر ، وحجته واهية وباطلة ؟

وعطفت جملة " جيء بالغلام " على ما قبلها بـ " ثم " للدلالة على الترتيب مع المهلة ، أي أن الإتيان بالغلام كان بعد الانتهاء من أمر تعذيب الجليس بمهلة ، ولعل السبب في تأخير الغلام هذه المهلة هو أن يرى ما فُعِل بصاحبه الراهب من العذاب

---

[1] النفر : اسم جمع يقع على الرجال خاصة ، وهو ما بين الثلاثة إلى العشرة ، ولا مفرد له من لفظه ، والجمع أنفار . لسان العرب / مادة : نفر .

[2] الذروة - بضم الذال وكسرها – هي أعلى سَنام البعير ، وذروة كل شيء أعلاه ، والجمع الذُّرى . النهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ٣٩٨ ، لسان العرب / مادة : ذرو .

[3] القُرقُور : ذَكَرَ كل من المازْري وابن الأثير أنه هو السفينة العظيمة ، والجمع قراقير . المعلم بفوائد مسلم ٣ / ٣٨٦ / لأبي عبد الله المازْري / تحقيق : محمد الشاذلي النيفر / بيت الحكمة / تونس / الطبعة الأولى / ١٩٩١ ، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤ / ٨٤ ، وذَكَرَ القاضي عياض أنه صغير السفن إكمال المعلم بفوائد مسلم ٨ / ٥٥٦ / تحقيق : د / يحيى إسماعيل / دار الوفاء / المنصورة / الطبعة الأولى / ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .

[4] انكفأت : انكبت وانقلبت ، يقال : كفأ الإناء يَكْفؤه كَفْأً : كَبَّه على وجهه وقلبه ، وكَفَأْت القِدْر : إذا كَبَبْتها لتُفْرغ ما فيها ، وأكْفأْت الشيء : قلبته . مقاييس اللغة ، لسان العرب ، المعجم الوسيط / مادة : كفأ .

والبطش فيرجع عما هو فيه ، وينزجر عما هو عليه . ولكن كيف يتأتَّى له ذلك وقد ذاق حلاوة الإيمان ، وأنار الله بالإيمان قلبه .

وبُنِيَ الفعل " جيء " للمجهول وحُذِفَ الفاعل لعدم تعلق الفائدة به ، إذ المقصود هو المجيء بالغلام بصرف النظر عمن جاء به ، والباء في به في " بالغلام " لتعدية الفعل اللازم وإيصال معنى الفعل إلى المفعول به .

والفاء في جملة " فقيل له : ارجع عن دينك " عاطفة للجملة الداخلة عليها على جملة " جيء بالغلام " ، وفي ذلك دلالة على أن الأمر المُوَجَّه إلى الغلام بالرجوع عن دينه وُجِّهَ إليه بعد المجيء به مباشرة وبدون مهلة ، وجاء مترتبًا عليه ومسببًا عنه .

وبُنِيَ الفعل " قِيْلَ " للمجهول وحُذِفَ الفاعل لعدم تعلق الفائدة بذكره ، إذ المقصود هو قول هذه الجملة " ارجع عن دينك " للغلام بصرف النظر عمن كُلِّفَ بقولها وتبليغها له ، والأمر المُوَجَّه للغلام بالرجوع عن دينه على سبيل الوجوب والتكليف الإلزام ، وجاء الجواب من الغلام بالإباء الدال على شدة الامتناع .

ونلحظ أن صيغة الأمر المُوَجَّه لكلٍّ من الراهب والجليس والغلام واحدة هكذا " ارجع عن دينك " ، وجاء الجواب من الثلاثة جميعًا أيضًا بصيغة واحدة ، وهي " أبى " الدالة على الإباء القوي والامتناع الشديد ؛ وذلك لأن قضية هذا الملك الكافر مع هؤلاء الثلاثة المؤمنين بالله – عز وجل – واحدة ، وهي الرجوع عن الإيمان بالله – عزَّ وجلَّ – إلى دين الملك الظالم ، حيث كان قد ادعى الألوهية من دون الله تبارك وتعالى ، وكذلك لأن قضيتهم أيضًا واحدة ، وهي الإيمان بالله – عزَّ وجلَّ – وحده ، وهمهم واحد وهو إعلان التوحيد لله والكفر بأي آلهة أخرى ، ومنها هذا الملك الكافر الظالم .

وعُطِفَتْ جملة " دفعه إلى نفر من أصحابه " عل جملة " أبى " بالفاء للدلالة على أن دفع الملك الغلام لهؤلاء النفر من أصحابه ليفعلوا به كذا وكذا جاء مرتبًا على إبائه ، وناتجًا ومسببًا عنه ، وتاليًا له مباشرة وعلى الفور ، وليس هذا عجيبًا ولا بدعًا ، فذلك شأن الملوك الظلمة والطغاة الجبابرة ؛ لأنهم لا يعرفون لغة الحوار والنقاش والإقناع ، وذلك لضيق أفقهم وقصر باعهم ، وإنما يعرفون فقط لغة المبادرة إلى البطش والتعذيب والانتقام ، ولغة الفساد والإفساد في الأرض .

وجاء التعبير بالفعل " دفع " دون سَلَّمَ ، لدلالة " دفع " على القوة والتنحية والإبعاد ، الأمر الذي يوحي بأن الملك كان يريد أن يُنَحِّي الغلام ويبعده عنه ، إذ لم يتحمل بقاءه في مملكته بأي حال من الأحوال ؛ لأنه رأى في بقائه في مملكته خطرًا على ملكه وسلطانه بعد دعوته إلى التوحيد لله عزَ وجلّ ، وبعد ما أظهره الله – جلّ وعلا – على يديه من كرامات تؤيد دعوته وتؤازرها .

وإضافة الأصحاب إلى الضمير العائد إلى الملك في لفظة " أصحابه " للتحقير لشأن المضاف ؛ لأنهم ليسوا أصحاب ملك عادل مُوَحِّد بالله تبارك وتعالى ، وإنما هم أصحاب ملك ظالم طاغية مُدَّعٍ للألوهية والربوبية ، وهكذا فشبه الشيء منجذب إليه ، والطيور على أشكالها تقع .

وفي إرسال الأصحاب معه إنجاء بالزجر لهم عن أن يقعوا فيما وقع فيه الغلام ، وهو ما تسبب عنه عذابه ، ونتج عنه هلاكه [1] .

وجاء الأمر الطاغوتي الفرعوني من الملك العنيد لهؤلاء النفر من أصحابه " اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا ، فاصعدوا به إلى الجبل ... " للتكليف والوجوب والإلزام والاستعلاء ظنًّا وزعمًا منه أن أمر الغلام سينتهي بمجرد مرسوم ملكي تعسفيّ ، أو بأمر قاهر طاغوتي ، ولكن أَنَّى له ذلك ؟ وهيهات هيهات . والباء في " به " للمصاحبة ، أي اذهبوا معه إلى جبل سمّاه الملك لهم، أو اذهبوا مصطحبين له إلى ذلك الجبل المُسَمَّى لكم .

وقول الملك : " كذا وكذا " كناية مركبة من كلمتين ، وتستعمل معطوفة كما هنا ، ومكررة بدون عطف ، ومفردة ، ويُكَنَّى بها عن الشيء المجهول المبهم الذي لا يراد التصريح به والإفصاح عنه ، سواء كان ذلك فعلًا ، أو عددًا ، أو زمانًا ، أو مكانًا ، أو غير ذلك [2] .

والأمر في " اصعدوا " للتكليف والإلزام والوجوب والاستعلاء كفا في الأمر السابق تمامًا " اذهبوا به " ، والباء في " به " للمصاحبة أيضًا ، أي اصعدوا معه إلى الجبل ، أو مصطحبين له إلى الجبل الذي سماه الملك لهم .

---

[1] دليل الفالحين ١ / ١٦٦ .

[2] النهاية في غريب الحديث والأثر ٤ / ٢٨٢ ، دليل الفالحين ١ / ١٦٦ .

وعُرِّفَ " الجبل " باللام للعهد الذكري الصريح لسبق ذكره قبل ذلك في قول الملك : " اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا " ، والجبل هنا هو نفس الجبل الذي سبق ذكره قبل ذلك ، لأن اللفظ النكرة إذا أعيد معرفة كان الثاني عين الأول ونفسه ، وكان مقتضى الظاهر أن يذكر الجبل هنا مضمرًا لسبق ذكره صريحًا ، وإنما أظهر هنا تثبيتًا للمعنى الذي يوحي به اللفظ ، وتوطيدًا وترسيخًا له في ذهن ونفس المتلقي مرتبطًا بدلالته وصورته البشعة والمُرَوِّعة .

وعُطِفَتْ جملة " اصعدوا به إلى الجبل " على جملة " اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا " بالفاء لإفادة الترتيب والتعقيب ، أي أن صعود الأصحاب بالغلام إلى الجبل جاء مرتبًا على ذهابهم به إليه مباشرة وبلا مهلة ، وكأن زمن الصعود جاء لاحقًا وتاليًا لزمن الذهاب ومتصلًا به بلا فاصل زمني ، وكذلك فقد أفادت الفاء أيضًا بدلالتها على السببية أن صعود الأصحاب بالغلام الجبل إنما جاء مسببًا عن ذهابهم به إليه .

واستخدم الملك أداة الشرط " إذا " ؛ لأن مدخولها – وهو بلوغ أصحاب الملك بالغلام ذروة الجبل – أمر يظن وقوعه في المستقبل ظنًّا قويًّا ويترجح على عدم الوقوع لدى الملك .

وبما أن " إذا " اسْتُخْدِمَت في المُرَجَّح على غيره والمظنون ظنًّا قويًّا فقد جاء شرطها " بلغتم " بلفظ الماضي للإشعار بتحقق الوقوع وترجحه ، هذا بالإضافة إلى أن الملك حينما عَبَّرَ بالماضي تخيّل غير الحاصل حاصلًا تلبية للرغبة الملحة لديه في حصوله .

وحُذِفَ جواب " إذا " لدلالة السياق عليه ، والتقدير " فإذا بلغتم ذروته ففاوضوه في الأمر ، وساوموه على عقيدته ، وأعرضوا عليه الرجوع عما هو عليه بُغْيَة أن يعود إلى دين الملك ، وفي هذا الحذف لون من الاختصار ، وضرب من الإيجاز ، وتركيز للعبارة ، وإثراء للمعنى ؛ لأن الحذف هنا يفتح باب التقدير لكل ما يحتمله السياق مما يفهم من فحوى الكلام وأطواء الأسلوب خدمة للمعنى ، وإثراء للفكرة ، وهذا أبلغ في المعنى ، وهو من البلاغة في المحل الأعلى .

واختار الملك الطاغية من الجبل " ذروته " ؛ لأن الطرح من عليها مظنّة الهلاك وسبيل تَعَذُّر النجاة والخلاص ، وهذا ما يرومه هذا الملك الظالم ، وينشده ويسعى إليه .

وفي قول الملك للأصحاب " فإن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه " لون بديعي ، وهو الاحتباك [1] ، حيث حذفت جملة جواب الشرط الأول لدلالة جواب الشرط الثاني عليها ، وحذفت جملة الشرط من الشرط الثاني لدلالة جملة الشرط من الشرط الأول عليها ، والتقدير " فإن رجع عن دينه فاتركوه ، وإن لم يرجع عن دينه فاطرحوه ، وهذا من الإيجاز البليغ الذي يعد في ذروة سنام البلاغة ، وذلك من ألطف أنواع البديع ، فقد جاء المعنى واضحًا بأسلوب مركز خالٍ مما يثقل كاهله ، ويؤدي به إلى الترهل ، وذلك بحذف ما يفهم من الأسلوب لدلالة السياق عليه ، وهذا من غُرَر ودُرَر البيان النبوي ، وكله غُرَر ودُرَر .

واستخدم الملك هنا أداة الشرط " إن " في هذين الشرطين ؛ لأن الملك يعلم أن رجوع الغلام عن دينه بعد ما وصل إلى ما وصل إليه من خوارق وكرامات أمر غير محقق الوقوع ، وغير مقطوع به ، ويظن عدم وقوعه ، ويترجح على الوقوع في المستقبل ، وما ذلك إلا لأن الغلام قد ذاق حلاوة الإيمان ، وباشر الإيمان قلبه ، وخالط فؤاده ، وتعلقت به نفسه ، وملك عليه لُبَّه ، وسيطر على أقطار فكره ، واختلط بلحمه ودمه وعظمه ، وثَبَّتَه الله بيقينه ، فأنى له الرجوع عن هذا الدين العظيم ؟ وكيف يكون له ذلك ، ولو وضع الملك الشمس في يمينه والقمر في يساره ؟ !!!

واستخدم الملك فعل الشرط " رجع " بلفظ الماضي – وهو مستقبل معنى لدخول أداة الشرط عليه – تفاؤلًا في رجوع الغلام عن دينه ، ولرغبته الشديدة في ذلك ؛ ولذا فقد تخيل غير الحاصل حاصلًا ، وكأنه قد حصل وأخبر عنه طمعًا في حصوله ، ورغبة في حدوثه .

وفي إضافة الدين العائد إلى الضمير العائد إلى الغلام في لفظة " دينه " تعظيم وتشريف وتكريم للمضاف إليه وهو الغلام ، حيث إن المضاف – وهو الدين الذي اعتنقه

---

[1] الاحتباك : لقد عَرَّفه الغرناطي بأنه هو " أن تَحْذِف من الأول ما أثبتَّ نظيره في الثاني ، و تَحْذِف من الثاني ما لأثبتَّ نظيره في الأول " . طِراز الحُلَّة وشِفاء الغُلَّة / ٥٠٨ / تحقيق : د / رجاء السيد الجوهري / مؤسسة الثقافة الجامعية / الإسكندرية / ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ، وينظر شرح عقود الجمان / ١٣٣ / للسيوطي / دار الفكر / بيروت / لبنان / بدون تاريخ ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها / ٣٥ ، ٣٦ / د / أحمد مطلوب / مكتبة لبنان / بيروت / لبنان / ٢٠٠٧ م ، زهر الربيع / ١٩٠ / للشيخ : أحمد الحملاوي / المطبعة الكبرى الأميرية / بولاق / مصر / الطبعة الأولى / ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م .

الغلام القائم على التوحيد والربوبية لله – عزّ وجلّ – دون سواه كائنًا من كان – دين عظيم وشريف وكريم .

وفي قول الملك " اطرحوه " دلالة على القسوة والعنف في إهلاك الغلام والتخلص منه في حالة عدم رجوعه عن دينه ؛ وذلك لما توحي به هذه اللفظة من الدلالة على العنف والقسوة والإبعاد والمبالغة .

وعطفت جملة " ذهبوا به " بالفاء على جملة أخرى محذوفة ، والتقدير " فامتثلوا لأمر الملك ، فذهبوا بالغلام " ، وعطفت جملة " صعدوا به " على جملة " ذهبوا به " بالفاء أيضًا ، والغرض من العطف بالفاء هنا في الموضعين هو الدلالة على الترتيب والتعقيب ، أي أن امتثال الأصحاب لأمر الملك جاء بعد صدور الأمر من الملك وتاليًا له مباشرة وبلا مهلة ولا توانٍ ، و جاء كذلك مترتبًا عليه ومسببًا عنه ، وكذلك جاء أيضًا صعود الأصحاب الجبل بالغلام بعد ذهابهم به مباشرة ، ومترتبًا عليه ، ومسببًا عنه ،

والباء في " فذهبوا به فصعدوا به الجبل " للمصاحبة ، أي فذهبوا وصعدوا معه الجبل ، أو فذهبوا وصعدوا الجبل مصطحبين له معهم ، وتحتم الباء هنا أن تكون للسببية ، أي أن الأصحاب ذهبوا وصعدوا بسببه إلى الجبل ، ولكن أرى – والله أعلم – أن المصاحبة هنا أقرب إلى المراد .

وذُكِرَ " الجبل " هنا صريحًا ، وظاهر المقام يقتضي ذكره مضمرًا لسبق ذكره قبل ذلك ، ولعل الغرض من ذلك هو طول الفصل بين ذكره صريحًا قبل ذلك وذكره هنا ، هذا بالإضافة إلى ما في ذكره صريحًا من تمكين وتقرير وتثبيت المعنى الذي توحي به هذه اللفظة من الإرهاب والإرعاب والتخويف والترويع في نفس الغلام ، ولكنه غلام لم يخفه بطش الملك وتهديده ووعيده ، فهو غلام قد فاق طوره وبَزَّ أقرانه .

ولعل السبب في عدم قتل الملك الغلام بالكيفية التي قتل بها الراهب والجليس هو أن الملك عندما رأى الغلام قد ذاع صيته ، وصارت له شعبية كبيرة بين الناس رأى أن يقتل الغلام بهذه الكيفية بعيدًا عن الناس ؛ ليُنْسَى ذكره ، ويطوى اسمه ، ويظن الناس أنه قد مات ميتة طبيعية ، أو أن الملك أراد أن يبقى الغلام حتى آخر لحظة لعله يرجع ويكسبه الملك لصفه لما لديه من قدرات فائقة ومتميزة ، وكذلك فإن قتل الغلام بالمنشار يكون

أشد بشاعة من قتل كلٍّ من الراهب والجليس لصغر سن الغلام ، الأمر الـذي قـد يثيـر الناس أو بعضهم ضد الملك .

والغرض البلاغي من نداء الغلام ربه بـ " اللهم " هو الاسـتغاثة بـالله – سـبحانه وتعالى – وطلب العون والنصرة منه على ما دُبِّرَ وأُعِدَّ له من شر من جانب هذا الملـك الطاغية الظالم على يد هؤلاء الأصحاب الذين كلفهم بتنفيذ ما دُبِّرَ وأُعِدَّ للغلام من أمـر قتله والتخلص منه .

واختار الغلام الدعاء بهذه الصيغة ؛ لأن لفظ الجلالة " الله " من الأسماء الحسنى التي ترجع إليها جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا لله رب العالمين سـبحانه وتعـالى ، وكأن الغلام حينما جأر إلى الله – عزّ وجلّ – ودعاه بهذه الصيغة " اللهم " يكون قد دعا الله – تبارك وتعالى – بكل أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وهـذا أحـرى بالإجابـة ، وأدعى لقبول الطلب وتلبية المسألة ، وكيف لا ، والله – سبحانه وتعالى – حيـي كـريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يرده خائبًا صفر اليدين .

والغرض البلاغي من الأمر في قول الغلام : " اكفنيهم " الدعاء ، لكونه من الأدنـى – وهو الغلام – إلى الأعلى ، وهو الله سبحانه وتعالى ، هذا بالإضافة إلى ما تضمّنه الأمر هنا التضرع إلى الله – عزّ وجلّ – والخضوع له ، والتوجّه إليـه ، والاسـتعانة بـه ، وكذلك ما يوحي به التعبير بصيغة الأمر من الدلالة على الرغبة القوية في تحقيق مسألته . والباء في قول الغلام " بما شئت " للدلالة على الاستعانة ، أي اكفني – يا ربي – شـر ما دُبِّرَ لي مستعينًا بالذي شئت من أنواع وصور الكفاية بإهلاكهم أو غير ذلك مما يؤدي إلى تخلصه ونجاته من جبروت وبطش الملك الطاغية وحاشيته الفاسدة .

و" ما " هنا يجوز أن تكون مصدرية ، أي بمشيئتك ، ويجوز أن تكون موصولة ، أي بالذي شئت من أنواع الكفاية وسبل النجاة وجنود الإهلاك لأعدائك وأعداء دينك وأوليائك ، والتعبير بالاسم الموصول " ما " هنا الدال على العمـوم أبلـغ مـن التعبيـر بالاسـم الموصول الخاص " الذي " ، كما لو قال : " بالذي شئت " ، وكأن الغلام يريد أن يقـول : " اللهم اكفنيهم بأي نوع من أنواع الكفاية تشاؤه أنت " ، هذا بالإضافة إلى ما في عـدم التحديد من تفويض الأمر إلى الله – سبحانه وتعالى – في اختيار الوسيلة التي يدمر بها هؤلاء الأعداء ، وبأي كيفية شاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو .

واستخدم الغلام الفعل " شئت " المسند إلى تاء المخاطب – وهو الله سبحانه وتعالى – بصيغة الماضي للدلالة على التفاؤل ، والحرص الشديد على تحقق الوقوع ، والرغبة القوية في تحقيق ما يشاء الله – عزّ وجلّ – نجاته به .

والفاء في قوله : – ﷺ – " فرجف بهم الجبل " عاطفة ، حيث عطفت الجملة الداخلة عليها على جملة جواب الأمر " اكفنيهم " المحذوفة ، والتقدير " اللهم اكفنيهم بما شئت فكفاه الله إياهم بما شاءه فرجف بهم الجبل " ، فرَجَفان واضطراب الجبل بهم إنما جاء مرتبًا على كفاية الله للغلام إياهم ومسببًا عنه ، وتاليًا له مباشرة وبلا مهلة ، وفي حذف جملة جواب الأمر الدال على الدعاء هنا إيحاء بسرعة استجابة الله – سبحانه وتعالى " لدعاء هذا الغلام المضطر المستغيث ، وكأن سرعة الاستجابة لم تدع للجملة المحذوفة وقتًا ؛ ليُتَلَفَّظ بها في الكلام .

وجاء التعبير بالفعل " رجف " ؛ لما يوحي به من الدلالة على الاضطراب الشديد والزلزلة القوية والحركة المتوالية والسريعة ، الأمر الذي أدى إلى إهلاك الأصحاب وتدميرهم .

وذكر " الجبل " في قوله – ﷺ – " فرجف بهم الجبل " صريحًا ، وكان ظاهر المقام يقتضي الإضمار لسبق ذكره صريحًا لتثبيت وتمكين صورة الجبل وقد أسند إليه الرَجَفان الدال على الاضطراب الشديد وسرعة وشدة وقوة الانتقام في ذهن المتلقي ، وتقرير هذه الصورة البشعة المُرَوِّعة في نفس المخاطب ، فكلمة الجبل في سياق هذا المشهد لها مكانة خاصة ودلالة مهمة لا ينهض بها الضمير .

وعطفت جملة " سقطوا " على جملة " فرجف بهم الجبل " للدلالة على أن سقوط هؤلاء الأصحاب من على الجبل وإهلاكهم قد جاء مسببًا عن الرَجَفان ، وتاليًا له مباشرة بلا مهلة ، ومرتبًا عليه ، وهكذا فقد نصر الله – سبحانه وتعالى – ذلك الغلام على ما دَبَّرَه له هذا الملك الطاغية لما تحلى به الغلام من الخروج عن حول نفسه وقوتها ، والاعتماد على الله ، والتوكل عليه ، واللجوء إليه ، والانتصار به .

والواو في جملة " وجاء الغلام يمشي " ليست عاطفة ، وإنما هي استئنافية ؛ لتؤذن باستقلال وانفصال ما بعدها عما قبلها ، وتدل على أنه كلام جديد ليس معطوفًا على ما قبله عطف مفردات ، أو عطف جمل لها محل إعرابي ، وإنما ذلك من قبيل عطف القصة

على القصة ، أو عطف جملة مسوقة لغرض على جملة أخرى مسوقة لغرض آخر ، يقول المرادي : " والظاهر أنها تعطف الجمل التي لا محل لها من الإعراب لمجرد الربط ، وإنما سُمِّيَتْ واو الاستئناف ؛ لئلا يُتَوَهَّم أن ما بعدها من المفردات معطوف على ما قبلها " [1] .

وذُكِرَ " الغلام " هنا مظهرًا ، وظاهر المقام يقتضي ذكره مضمرًا لسبق ذكره قبل ذلك ، وإنما ذُكِرَ هنا مظهرًا لطول الفصل ، ونظرًا لما أُسْنِدَ إليه من هذا الحدث العجيب والغريب ، وهو مجيئه يمشي إلى الملك بعد أن نجّاه الله – تبارك وتعالى – من هذا التدبير الخبيث ، وبعد أن أهلك هؤلاء الأصحاب الذين ذهبوا به للفتك به والتخلص منه ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، ولن تجد لسنة الله تبديلًا ، ولن تجد لسنة الله تحويلًا .

واستخدم النبي – ﷺ – الفعل " يمشي " بصيغة المضارع للدلالة على استحضار هذه الصورة الغريبة والعجيبة واللافتة للانتباه أمام الملقي كأنه يراها بناظريه ، ويشاهدها بعينيه ، وهي صورة مجيء الغلام يمشي بعد سقوط أصحابه صرعى من على الجبل دون أن يصاب هو بأي شكل من أشكال الأذى ، فلم يأت مصابًا ، ولا محمولًا على دابة ، ولا محمولًا على الأعناق ، فسبحان من كفاه ما أُمِرَ هؤلاء الأصحاب بتنفيذه من قِبَل هذا الملك الطاغية ، إنها عناية الله – سبحانه وتعالى – قد لاحظته .

ولعل سائلًا يسأل ويقول : لماذا لم يهرب الغلام بعد أن سقط الأصحاب من على الجبل صرعى ونج هو مما دُبِّرَ له ؟ والجواب على ذلك هو أن الغلام لديه مُهِمَّة ما زالت لم تتحقق ، وهدف سامٍ لم ينجز بعد ، وهو عرض الإيمان على الناس وتوضيح الحق لهم لعلهم يؤمنون ، ولعل الملك يفيق من غفوته وغفلته ، ويتراجع عن ضلاله وطغيانه عندما يرى أسرار وحكمة الله – عزّ وجلّ – في كيفية قتل هذا الغلام .

وفي عطف جملة " فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ " على جملة " جاء يمشي إلى الملك " بالفاء دلالة على أن قول الملك للغلام قد حدث بعد وصول الغلام مباشرة وبدون مهلة ، وكأن الفاء هذه أوصلت زمن الفعل " قال " بزمن الفعل " جاء " ، هذا بالإضافة إلى الدلالة على أن القول قد جاء مرتبًا على المجيء ، ومسببًا عنه .

---

[1] الجنى الداني / ١٦٣ .

والغرض البلاغي من الاستفهام في قول الملك للغلام : " ما فعل أصحابك ؟ " هو التعجب والدهشة ، حيث تعجب الملك من حال الغلام حينما جاء سليمًا معافى يمشي ولم يُصَب بسوء ، وليس معه الأصحاب ، حيث إنهم قد لقوا مصرعهم في الوقت الذي كان يظن فيه الملك الظالم أن يكون العكس هو المتوقع فيموت الغلام ويبقى الأصحاب سالمين ، وإنما جاء الغلام يمشي أمام الملك ؛ " ليريه آية الله – تعالى – بنصر أهل دينه ؛ لنكشف عن قلبه حُجُب الغواية فيرجع إلى الإيمان " [1] .

ونلحظ هنا أن الملك أضاف الأصحاب إلى الغلام ولم يضفهم لنفسه هو رغم أنهم هم النفر الذين أرسلهم مع الغلام ؛ ليفعلوا به ما أُمِرُوا بفعله ، فلم يقل : " ما فعل أصحابي أو جنودي ؟ " ، ولعل السر في ذلك هو أن الملك لما رأى الغلام قد جاء يمشي سليمًا معافى دون الأصحاب توقع أن تكون هناك هزيمة قد حدثت ، وهو لا يريد أن ينسب الهزيمة لنفسه عنادًا ومكابرة .

وفُصِلَت جملة " قال : كفانيهم الله " على جملة " قال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ " لشبه كمال الاتصال ، حيث جاءت الجملة كالجواب عن سؤال فُهِمَ من فحوى الجملة الأولى ، كأن سائلًا سأل وقال : إذا كان هذا هو قول الملك ، فماذا كان قول الغلام ردًا على قول الملك ؟ ولعل السبب في فصل جملة الجواب عن جملة السؤال هو قوة العلاقة والترابط بين الجملتين ، حيث إن الجواب قوي العلاقة وشديد الارتباط بالسؤال .

ونلحظ هنا أن الغلام أسند الفعل " كفى " لفاعله الحقيقي " الله " ، ولم ينسب الكفاية والانتصار لنفسه ، فلم يَدَّعِ – مثلًا – أنه فعل طريقة كذا ، أو عمل حيلة كذا ؛ لينجو ويتخلص من أذى الأصحاب ، ولكنه ما زال مُصِرًّا على إيمانه بالله ، ونسبة كل شيء إلى فاعله الحقيقي ، هذا بالإضافة إلى التواضع الملازم له في كل لحظاته وحركاته وسكناته حتى في لحظة الانتصار .

وآثر الغلام لفظ الجلالة " الله " في جوابه على سؤال الملك هنا كما آثره في دعائه في قوله : " اللهم اكفنيهم " ، ولعل السر في ذلك هو أن الغلام يريد أن يُسْمِع الملك لفظ

---

[1] دليل الفالحين ١ / ١٦٧ .

الجلالة " الله " العلم على الذات العلية والدالّ على الألوهية منسوبًا إليه كل شيء ؛ ليعلمه أن الألوهية لا تكون إلا لله وحده سبحانه وتعالى – دون سواه .

والفاء في " فدفعه إلى نفر من أصحابه " استئنافية ، أي أن ما بعدها كلام جديد ، أو أن ذلك من باب عطف القصة على القصة ، أو عطف جملة مسوقة لغرض على جملة مسوقة لغرض آخر ، وفي هذا ترابط للأسلوب وتماسك لأجزائه .

وقول الرسول – ﷺ – : " فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به " قد سبق التعليق عليه وبيان ما انطوى عليه من أسرار آنفًا ، وبالتالي لا نعيد التعليق عليه [1] .

والأمر في قول الملك للأصحاب : " اذهبوا به " و " احملوه " و " توسطوا به " للوجوب والتكليف الإلزام ، حيث إنها أوامر من الملك الجبار الغِطْرِس لبعض حاشيته الذين هم طوع أمره ورهن إشارته ، وإلا فالعقاب الشديد والعذاب الأليم لمن لا يستجيب لهذه الأوامر .

واستخدم الملك حرف الجر " في " الدال على الظرفية في قوله : " احملوه في قرقور " ، والأصل في الحمل أن يكون بالحرف "على " الدال على الفوقية والاستعلاء ، وفي ذلك دلالة على شدة تمكن الأصحاب من الغلام ، فلا يستطيع أن يقفز من السفينة في مكان يظن فيه نجاته وتخلصه مما دُبِّرَ له وطُلِبَ تنفيذه على أيدي أولئك الأصحاب ، وفي ذلك استعارة تبعية ، حيث شبه القرقور بالظرف بجامع التمكن في كل ، ثم استعير لفظ " في " وهو جزئية من جزئيات المشبه به واسْتُعْمِلَ في المشبه .

واستخدم الملك لفظ " قرقور " منكرة ؛ لأن المراد فرد من أفراد الجنس دون تعيين واحد بعينه ؛ لأنه لا حاجة إلى تعريفه ، ولا غرض من تعيينه ، فالمراد هو أن يحمل الأصحاب الغلام في قرقور بصرف النظر عن تعيينه أو تعريفه أو تحديده .

وعطفت جملة " احملوه في قرقور " على جملة " اذهبوا به " ، وعطفت كذلك جملة " توسطوا به البحر " على جملة " احملوه في قرقور " بالفاء للدلالة على ترتيب الأحداث وتواليها بسرعة وبلا مهلة زمنية ، فكل حدث جاء بعد الآخر مباشرة ،وهكذا جاءت الفاء لتآزر الجمل ، وترابط المفاهيم ، والتحام الدلالات ، وتعاقب الأحداث على وجه السرعة ،

---

[1] البحث صـ ٤٠ .

وهكذا يكون تنفيذ أوامر الملك الطاغية الذي ثـارت ثورته ، فأرغـد وأزبـد ، وأبـرق وأرعد ، وطار عقله ، وفقد صوابه .

واختار الملك وسط البحر بقوله : " فتوسطوا به البحر " ؛ لأن وسـط البحـر مظنـة الهلاك لبعد غوره ، وبالتالي يتعذر الخلاص ، ولا يوجد هناك أي احتمال للنجاة ، وفـي هذا الاختيار من الملك دلالة على ارتفاع ثورة غضب الملك النفسية على الغـلام ، فهـو يريد أن يتخلص منه بين لحظة وأخرى بأي حال من الأحوال .

والباء في قول الملك : " اذهبوا به ، فاحملوه في قرقـور ، فتوسـطوا بـه البحـر " للمصاحبة ، أي اذهبوا معه أو مصطحبين له ، فاحملوه في السفينة ، فتوسطوا معـه أو مصطحبين له ، وفي هذا دلاله على ملازمة الأصحاب للغلام حتى لا يتمكن الغـلام مـن الهرب ، وحتى يتمكن الأصحاب من الفتك به بما دُبِّرَ له ، ولكن أنى لهم ذلك وقد أحاطته العناية الإلهية .

وتعريف البحر باللام للدلالة على العهد الخارجي العلمي ، حيث لم يسبق للبحر ذكـر صريحًا ولا كنائيًّا ، وإنما هو بحر متعارف عليه بين الملك والأصحاب الذين أرسلهم مع الغلام لتنفيذ ما أُمِرُوا به من قِبَل الملك بشأن إهلاك الغلام والتخلص منه .

وفي قول الملك للأصحاب : " فإن رجع عن دينه ، وإلا فاقذفوه " احتباك كما سبق في قوله لهم أيضًا بعد أن أمرهم بالذهاب بالغلام إلى الجبل وبلوغ ذروته : " فإن رجع عـن دينه ، وإلا فاطرحوه " [1] ، والتقدير هنا " فإن رجع عن دينه فاتركوه ، وأن لـم يرجـع عن دينه فاقذفوه "، فحذف جواب الشرط الأول " اتركوه " لدلالة جواب الـشرط الثـاني عليه " اقذفوه " ، وحذف فعل الشرط من الشرط الثاني " يرجع " لدلالة فعل الشرط الأول عليه " يرجع " ، وفي ذلك ضرب من الإيجاز البليغ الذي هو إحدى سـمات وخـصائص البيان النبوي ، فقد جاء الكلام مركزًا مكثفًا خاليًا مما يثقل كاهله ، حيث قـد دلّ عليـه غيره في مما ذُكِرَ الأسلوب ، ولا غرو في أن الحذف في حالة وجود الغرض الذي يدعو إليه ودلالة السياق على المحذوف يكون أبلغ من الذكر ، وأزيد وأربى للإفادة .

---

[1] البحث صـ ٤١ .

ونلحظ أن الملك قال للأصحاب في شأن إلقاء الغلام ورَمْيه من على الجبل : " فإن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه " وقال لهم هنا في شأن إلقائه في البحر : " فإن رجع عن دينه ، وإلا فاقذفوه " ، تفننًا في التعبير ، ولما في من الدلالة على الرمي والطرح بدفع وسرعة من القاذف ، وكأن الملك يريد أن يقول للأصحاب : ارموه وألقوه في البحر بدفع وسرعة منكم ؛ ليغرق في قاع البحر ولا يبقى ولا يظهر له أي أثر لا من قريب ولا من بعيد .

وفي اقتران جملتي جوابي الشرطين " فاطرحوه " و" فاقذفوه " دلالة على ربط الجواب بالشرط وتلاحم أجزاء الكلام وتشابك أطرافه .

والفاء في " فذهبوا " عاطفة ، حيث عطفت هذه الجملة على جملة أخرى : والتقدير " فاستجاب الأصحاب لأمر الملك فذهبوا به " ، وفي هذا الحذف لون من الإيجاز والاختصار للأسلوب ، هذا بالإضافة على ما في الحذف والعطف بالفاء هنا من الدلالة على سرعة الاستجابة من الأصحاب لأمر الملك الطاغية .

وجملة " قال : اللهم اكفنيهم بما شئت " معطوفة على جملة أخرى محذوفة ، والتقدير " فذهبوا به ، فحملوه في قرقور ، فتوسطوا به البحر ، وساوموه على دينه ، وعرضوا عليه الرجوع ، فأبى ، فأرادوا أن يقذفوه ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت " ،وهكذا وجدنا أن الأسلوب النبوي يأتي مركزًا وموجزًا وموحيًا طاويًا ما يفهم من السياق بدلالة القرائن عليه تركيزًا على الأفكار الجوهرية ومنعًا لتشتيت المتلقي ، فهو لا يذكر ولا يشرح للمتلقي كل شيء ؛ ليتيح له أن يستنتج ويحلل ، ويشق بمخيلته آفاقًا من التصوير والتفكير ، كل ذلك دون أن يؤدي الإيجاز إلى الغموض واللبس والإبهام على المخاطب ، وهذا هو أُسّ البلاغة ولُبّ لُبابها .

وقال الغلام في دعائه واستغاثته لربه هنا حينما أراد الأصحاب أن يقذفوه في البحر نفس ومثل ما قاله في استغاثته لربه قبل ذلك حينما أراد الأصحاب أن يطرحوه من على ذروه الجبل ، وفي ذلك دلالة على ثبات وصمود الغلام ويقينه بربه – سبحانه وتعالى – أنه هو الذي يخلصه وينجيه من شر هؤلاء الأشرار ، هذا بالإضافة إلى أن الحالة النفسية التي ألمّت بالغلام في الموقفين واحدة ، وهي حالة المضطر المستغيث بربه الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء .

والفاء في جملة " فانكفأت بهم السفينة " عاطفة ، حيث عطفت هذه الجملة على جملة أخرى محذوفة والتقدير" فاستجاب الله للغلام دعاءه ، فانكفأت بهم السفينة " وفي هذا الحذف إيجاز اختصار للأسلوب ، وفيه دلالة على السرعة الفائقة للاستجابة ، وكأن هذه السرعة الفائقة من الله – عزّ وجلّ – لهذا الغلام المضطر خطفت الجملة من الأسلوب ، حيث لم يعد لها زمن للتلفظ بها ، وبالتالي لم يعد لها مكان في الأسلوب لتذكر فيه .

والباء في " انكفأت بهم " للدلالة على التعدية والنقل ، أي لتعدية ونقل معنى الفعل – وهو الانكفاء – إلى المفعول به ، وذهب كلٌّ من المبرّد والسهيلي إلى أن " باء التعدية تقتضي مصاحبة الفاعل للمفعول في الفعل " ، أي أن الانكفاء حدث للأصحاب والسفينة معًا [1] .

وتعريف السفينة باللام للدلالة على العهد الذكري الصريح ، حيث ذكرت قبل ذلك تحت مسمى " قرقور " منكرة ، ومن المعلوم أن اللفظ النكرة إذا أعيد ذكره معرفة كان الثاني عين الأول .

وعطفت جملة " غرقوا " على جملة " فانكفأت بهم السفينة " بالفاء للدلالة على أن غرق هؤلاء الأصحاب جاء مرتبًا على انقلاب السفينة بهم مباشرة ، وبدون مهلة زمنية ، وفي هذا دلالة على سرعة انتقام الله – سبحانه وتعالى – من أولئك الظلمة الطغاة أعوان ذلك الملك الظالم الطاغية .

والواو في قوله – ﷺ – : " وجاء يمشي إلى الملك " –أي الغلام – للاستئناف ؛ لأن هذه الجملة ليست مشاركة لما قبلها في الإعراب ، فالواو هنا مؤذنة باستقلال وانفصال ما بعدها عما قبلها ، فما بعدها كلام جديد ليس معطوفًا على ما قبلها عطف مفردات ، أو عطف جمل لها محل إعرابي ، وإنما ذلك من قبيل عطف القصة على القصة ، أو عطف جملة مسوقة لغرض على جملة أخرى مسوقة لغرض آخر لربط بعض الكلام ببعض كما سبق بيان ذلك [2] .

وعبر النبي – ﷺ – بالفعل " يمشي " بصيغة المضارع للدلالة على استحضار هذه الصورة العجيبة البديعة الغريبة أمام المتلقي كأنه يراها بعينيه ، ويشاهدها بناظريه ،

---

[1] الجنى الداني / ٣٨ .
[2] البحث صـ ٤٤ .

وهي عودة الغلام يمشي من وسط البحر إلى الملك سالمًا معافى دون أن يغرق أو يصاب بأي نوع من أنواع الأذى !!! وأحسبه كان يمشي على الماء ، وتلك خارقة أخرى وكرامة من الكرامات التي أجراها الله – عزّ وجلّ – على يد الغلام ؛ ليُظْهِر للملك " الآيات الكبرى المرة بعد الأخرى ؛ ليُبْصِر ضياء الإيمان ، ولكن لا تبصر عين العميان " [1] .

وعطفت جملة " قال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ " على جملة " جاء يمشي إلى الملك " بالفاء للدلالة على أن قول الملك للغلام قد صدر منه بعد وصول الغلام مباشرة وبدون مهلة زمنية ، وفي هذا إشارة إلى أن صدور هذا السؤال من الملك للغلام قد جاء مرتبًا على المجيء ، وتاليًا له ومسببًا عنه .

وذكر لفظ الملك صريحًا في هذه الجملة " قال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ " ، وكان ظاهر المقام يقتضي إضماره ، وإنما ذكر صريحًا لأمن اللبس ؛ إذ قد يظن البعض لو قال النبي – ﷺ – : " وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له " أن الضمير في قال يعود إلى الغلام ، فيكون هو القائل والمستفهم لا الملك ، وفي هذا وضوح للأسلوب

لأمن اللبس ، وذلك من سمات الأسلوب البليغ ، والبلاغة هي البيان .

والاستفهام الصادر على لسان الملك للغلام هنا في قوله – ﷺ – : " ما فعل أصحابك ؟ " للتعجب كما سبق في سؤاله الغلام قبل ذلك [2] ، وذلك حينما عاد الغلام سالمًا يمشي من على الجبل وأهلك الله – عزّ وجلّ – أصحابه ، وكذلك استفهم الملك هنا متعجبًا من عودة الغلام من وسط البحر يمشي سالمًا معافى بعد أن انكفأت السفينة بالأصحاب استجابة من الله – تبارك وتعالى – لدعوته واستغاثته .

ونلحظ هنا أن الغلام أجاب الملك بمثل ما أجابه قبل ذلك فقال : " كفانيهم الله " ، ونلحظ أيضًا أن كلام الغلام قد جاء مركزًا تركيزًا عجيبًا على عرض قضية الألوهية وجعلها محور كلامه في قوله قبل ذلك للجليس : " إن أن آمنت بالله دعوت الله فشفاك " ، وقوله لكل من الجليس والملك : " إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله " ، وقوله للملك : " ربي وربك الله " ، وقوله في استغاثته : " اللهم اكفنيهم بما شئت " ،

---

[1] دليل الفالحين ١ / ١٦٧ .

[2] البحث صـ ٤٥ .

وقوله جوابًا على سؤال الملك له عن الأصحاب : " كفانيهم الله " ؛ ولعل ذلك لاشتمال هذه الجمل وتلك العبارات على لفظ الجلالة " الله " وإسناد هذه الأفعال إليه ، ولأن هذه العبارات كلها تتضمن إثبات الألوهية والوحدانية لله – عزّ وجلّ – وحده ، كل ذلك لعل هذا الملك الظالم ومن معه يراجعون أنفسهم ، ويفيقون من غفلتهم ، وينتبهون من غفوتهم ، فيرشدوا ويهتدوا للحق والصواب، ويؤمنوا بالله – سبحانه وتعالى – الواحد الأحد الفرد الصمد .

وفصلت جملة " كفانيهم الله " عن جملة " ما فعل أصحابك ؟ " لشبه كمال الاتصال ، حيث إن جملة " من فعل أصحابك " أثارت سؤالًا تقديره : فبماذا أجاب الغلام على سؤال الملك له عما فعل أصحابه ؟ وجاءت جملة " كفانيهم الله " جوابًا عن هذا السؤال ، وتكمن بلاغة هذا الفصل في قوة الترابط المعنوي بين جملتي السؤال والجواب .

المبحث السادس : التضحية من أجل العقيدة والدعوة إلى الدين:

" فَقَالَ لِلْمَلِكِ : إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ ، قَالَ: وَمَا هُوَ ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ (١) وَاحِدٍ ، وَتَصْلُبُنِي (٢) عَلَى جِذْعٍ (٣) ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ (٤) ، ثُمَّ قُلْ : بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ ، ثُمَّ ارْمِنِي ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ (٤) ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ ".

فبعد أن بَيَّن لنا الهادي البشير – ﷺ – في المقطع السابق كيف عجز الملك عن قتل الغلام أبان لنا هنا في هذا المقطع كيف قطع الغلام المؤمن المُوَحِّد على الملك الكافر الجبار العنيد الطريق إلى قتله إلا إذا استجاب لما يأمره به الغلام ، وامتثل كل الامتثال للكيفية التي يرشده إليها الغلام في قتله إظهاراً لعزة الإيمان وأهله أمام ذلَ الكفر وأهله ، وأوضح لنا كذلك انطلاقًا من قوة وعظمة الإسلام أمام ضعف وهوان الكفر كيف أصبح الغلام يأمر هذا الملك الطاغية ويفرض عليه الحل فرضًا ، وربما كان ذلك الأمر الصدر من الغلام للملك هو الأمر الوحيد الذي تلقّاه الملك منذ أن صار ملكًا إلى لحظة أمر الغلام له .

---

(١) الصعيد : والصعيد الأرض الواسعة والمرتفعة البارزة ، والجمع صُعُد ، وجمع الجمع صُعُدات ، إكمال المعلم بفوائد مسلم ٨ / ٥٥٧ ، النهاية في غريب الحديث والأثر ٣ / ٥٤ ، لسان العرب / مادة : صعد .

(٢) الصَّلْب : مصدر للفعل صَلَبَ ، يقال : صَلَبَ الجاني يصلُبه صَلْبًا : شدّ أطرافه وعلقه للقتل ، وقيل : هو شدّ صُلْبه على خشبة ، المفردات في غريب القرآن ٢ / ٣٧٣ / للراغب الأصفهاني / تحقيق : مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز / مكتبة نزار مصطفى الباز / مكة المكرمة / بدون تاريخ ، لسان العرب / مادة : صلب .

(٣) الجِذْع : هو ساق النخلة ، والجمع أجذاع وجُذُوع . لسان العرب ، المعجم الوسيط / مادة : جذع .

(٤) كبد القوس : وسطه ، وكبد الشيء : وسطه ومعظمه ، والجمع أكْباد وكُبُود . السابق / مادة : كبد .

(٤) الصُّدْغ – بضم الصاد وسكون الدال - : هو ما انحدر من الرأس إلى مَرْكَب اللَّحْيَيْن ، وقيل : هو ما بيت العين إلى الأذن ، والجمع أصْداغ وأصْدُغ . لسان العرب ، القاموس المحيط / مادة : صدغ .

وأكد الغلام للملك قوله : " إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به " بـ " إن " وحذف الجر الزائد " الباء واسمية الجملة ؛ لما رآه من تصميم الملك على قتله ، ولأن الملك لا يصدق بأنه يعجز – وهو الطاغية الجبار – بأي حال من الأحوال عن قتل هذا الغلام وقد عرف عنه سفكه للدماء ، ولا سيما أنه قد فتك قبله بالراهب والجليس دون أدنى اكتراث أو مبالاة بشيء ، فأراد الغلام أن يقطع على الملك كل السبل ، ويغلق أمامه كل الأبواب ، وأخبره بأنه لن يستطيع أن يقتله بأي حال من الأحوال إلا إذا امتثل لما يمليه الغلام عليه ويأمره به ، وهنا يزيد العجب ، إذ كيف يدعي الملك الربوبية وفي نفس الوقت يعجز عن قتل غلام واحد إلا إذا فعل ما يأمره الغلام به !!!

واستخدم الغلام أداة النفي " ليس " لدلالتها على نفي مضمون الجملة نفيًا مطلقًا ، أي في الماضي والحاضر والمستقبل ، كما ذكر ابن مالك [1] وابن هشام [2] ، وكأن الغلام أراد أن يقول للملك : إنك لا تستطيع قتلي بأي حال من الأحوال وفي أي وقت من الأوقات إلا إذا فعلت لما آمرك به .

و "حتى " هنا للدلالة على الغاية ، أي أن الملك لا يستطيع ولا يقدر على قتل الغلام إلا إذا وصل إلى هذه الغاية ، وهي الامتثال لأمر الغلام والكيفية التي يمليها عليه ويشرحها له .

واستخدم الغلام في مخاطبة هنا الفعل " تفعل " ولم يقل : " عمل " ؛ لأن الفعل ينسب إلى العقلاء وغير العقلاء والجمادات ، ويستعمل لما يكون دفعة واحدة ، أما العمل فالغالب أنه ينسب إلى العقلاء ، وقلما ينسب إلى غير العقلاء والجمادات ، ويستعمل لما يمتد زمانه [3] ، فاستعمل الغلام الفعل " تفعل " هنا مع هذا الملك الأحمق ؛ لأنه أَشْبَه الحيوانات والبهائم ، حيث إنه ألغى تفكيره ، وعَطَّل عقله ، وأمات شعوره وحسه حتى صار كالأنعام بل صار أضل ، وكأنه يريد أن يقول للملك : أيها الملك الأحمق الظالم لنفسه وللناس نَفِّذْ ما آمرك به ، ولا تعترض ، ولا تسأل ، ولا تستفسر ؛ لأنك لا تفهم ولا تعقل .

---

[1] ، الجنى الداني / ٤٩٩ .
[2] مغني اللبيب ١ / ٣٠٧ .
[3] المفردات في غريب القرآن ٢ / ٤٥١ ، ٤٥٢ .

واختار الغلام صيغة " آمرك به " بدلًا من " أمليه عليك " – مثلًا – لإظهار عزة الإسلام وقوة الحق أمام ضعف وخَوَر الباطل والطغيان والضلال ، فها هو الغلام الذي لم يبلغ الحلم بعدُ قد وصل به الحال إلى أن يأمر الملك ، ويفرض عليه الحل فرضًا ، وما ذلك إلا عزة الإسلام وقوة الحق .

وفصلت جملة " قال : وما هو ؟ " عن جملة " قال للملك : إنك لست بقاتلي " لشبه كمال الاتصال حيث جاءت جملة " قال : وما هو " جوابًا عن سؤال فهم من فحوى الجملة السابقة عليها تقديره : وماذا كان ردّ الملك على الغلام حينما أخبره أنه لا يستطيع قتله حتى يفعل ما يأمره به ، وهكذا تترابط الجمل بعضها ببعض ، ويتولد بعضها من بعض .

والواو في قول الملك : " وما هو " عاطفة ، والجملة بعدها معطوفة على جملة أخرى محذوفة ، والتقدير " أي شيء تأمرني به ؟ وما هو ؟ " ، وفي هذا الحذف مع دلالة السياق على المحذوف إيجاز واختصار للأسلوب ، وتفريغ له مما يثقل كاهله .

والاستفهام في قول الملك : " وما هو " للتعجب " ، فهو يستفهم متعجبًا من الشيء الذي يأمره به الغلام ليقتله به ، وكيف لا يستطيع الملك قتله وهو من هو في بطشه وجبروته وطغيانه ، وقد قتل قبله كلًا من الراهب والجليس بأبشع ألوان وصور القتل .

وفصلت جملة " قال : تجمع الناس في صعيد واحد ،... " عن جملة " قال وما هو ؟ " لشبه كمال الاتصال ، حيث جاءت الجملة الثانية جوابًا عن سؤال أثارته الجملة الأولى ، وفهم من فحواها ، وكأن سائلًا سأل وقال : وبماذا أجاب الغلام الملك على سؤاله وردَّ عليه ؟ وهكذا جاءت الجملة الثانية مترابطة بالأولى ؛ لأنها متولدة منها ، ومنبثقة عنها .

وعبر الغلام بالفعلين " تجمع " و " تصلب " بصيغة المضارع ، وإن كان مقتضى الظاهر أن يكونا بصيغة الأمر لاستحضار صورتي هذين الحدثين ماثلين ومشاهدين أمام المتلقي ، وكأن المتلقي يشاهد الملك بعينيه وهو يجمع الناس في صعيد واحد ، ويراه بناظريه وهو يصلب الغلام على جذع النخلة ، وذلك لكونهما صورتين غريبتين عجيبتين مدهشتين ، هذا بالإضافة ما في المضارع من المبالغة في الطلب تنبيهًا على سرعة الامتثال ، وكأن الغلام من شدة حرصه على إيمان الناس يناشد الملك المبادرة بالإسراع

إلى تنفيذ ما يأمره به ؛ ليحقق غرضه وما يصبو ويسعى إليه ، وهو إيمان الناس بـــالله رب العالمين سبحانه وتعالى .

واللام في " الناس " للدلالة على الاستغراق العرفي ، لأن المقصود بالناس هنا هم أهل البلدة أو المملكة ؛ لاستحالة أن يجمع الملك الناس كلهم حقيقة .

وذكر الغلام الجمع واختار الصعيد ؛ ليكون الأمر واضحًا جليًا ومشاهدًا أمام النـــاس ، حتى لا يكون هناك فرصة للملك لقلب الحقائق وتزويرها وتلبيسها على الناس ؛ لأن قتل الغلام بالصورة التي أشار على الملك بها لو تمّ سرًّا لكان في إمكان الملك قلب الحقـــائق وإخفاؤها على الناس ، وذلك بأن يقول مثلًا : إن الغلام أصيب بمرض ما ومات فجـــأة ، وذلك أَمْر قد يكون بمقدور هذا الملك الطاغية ، وقد يصدقه في ذلك الغافلون .

ووصف الغلام الصعيد بـــ " واحد " ؛ لأن تنكير كلمة " صعيد " يحتمل الدلالـــة علـــى الجنس والعدد ، وإنما أريد به هنا العدد ، فشُفِعَ وأُتْبِعَ بما يقلل الاشتراك الحاصـــل مـــن النكرة تأكيدًا لما سِيْقَ به من أجله .

وعطفت جملة " تصلبني " على جملة " تجمع الناس في صعيد واحد " للتـــشريك فـــي الحكم الإعرابي ، حيث إن جملة " تجمع الناس في صعيد واحد " في محل نـــصب مقـــول القول ، هذا بالإضافة إلى كون الجملتين فعليتين بـــصيغة واحـــدة ، وهـــي المـــضارع ، وكونهما خبريتين لفظًا إنشائيتين معنى ، فهما بمنى الأمر ، وكون المسند إليـــه فيهمـــا واحدًا ، وهو الضمير العائد إلى الملك .

ونكّر الغلام لفظة " جذع " للدلالة على أنه لم يقصد جذعًا بعينه ، وإنما يقصد أي جذع دون تعيين أو تحديد لعدم تعلق الفائدة بذلك ؛ لأن المراد هو حدوث الـــصلب وحـــصوله بصرف النظر عن تحديد وتعيين الجذع الذي يصلب الغلام عليه .

وعطفت جملة " خذ سهمًا من كنانتي " على جملة " تصلبني " – وهي خبريـــة لفظًـــا إنشائية معنى ، ففعلها مضارع بمعنى الأمر – بـــ " ثم " ، وكذلك جملة " ضَعْ السهم في كبد القوس " ، وجملة " قل باسم الله رب الغلام " ، وجملة " ارمني " جاءت معطوفة بـــــ " ثم " أيضًا للدلالة على الترتيب والتراخي ، أي مع المهلة ، وكأن الغلام يريد أن تُنَفَّـــذَ هذه الأحداث على وجه الترتيب ، وأن يكون هناك مهلة زمنية بين كل حدث وآخر ليعطى المتلقي نُهْزَة من الوقت يتأمل ويرصد ويرقب ويستوعب الأحداث ؛ لتتعمق الأحداث فـــي

قلوب المشاهدين ، ولكي يتأكد الناس من مشاهدة الموقف ورؤية ما يفعله هـذا الملـك الطاغية الجبار مع هذا الغلام البريء الذي ليس له ذنب اقترفه بحق ذلك الملـك الظـالم سوى إيمانه بالله وتوحيده له !! وبذلك يحس الناس بالظلم ، ويتأكد لديهم ظلم الملـك ، فينفضّون من حوله ، ويعلنون جهرًا وصراحة إيمانهم بالله – سبحانه وتعالى – وحده .

والغرض البلاغي من أفعال الأمر التي وجهها الغلام للملك في قوله : " خُذْ " و " ضَـعْ " و " قُلْ " و " ارْمِ " هو النصح والتوجيه والإرشاد ، فالغلام يرشد الملك ويوجهـه إلـى كيفية قتله !!!

وقد يقول قائل : لِمَ سعى الغلام في قتل نفسه ؟ ويجاب على ذلك بأن الغلام إنما فعل ذلك ليشتهر أمر الإيمان في الناس ، ويروا برهانه كما وقع ، أو بأن الغلام لم يكن بالغًـا ، أو بأنه لما غلب على ظنه أنه مقتول ولابُدَّ ، أو علم بما جعل اللهُ في قلبه أنه لابُـدَّ ولا محالة أن يُقْتَل أرشدهم إلى طريق يُظْهِر الله – تبارك وتعالى – بها كرامته وصحة الدين الذي هو عليه ؛ ليُسْلِم الناس ، وليدينوا دين الحق عند مشاهدة ذلك [1] ، هذا بالإضـافة إلى أن المرء له أن يستسلم إلى القتل إذا أُكْرِهَ عليه [2] .

وجاء الغلام بلفظ " سهمًا " نكرة لعدم تعلق الفائدة من تعريفه ، إذ المقصود هو أَخْـذ سهم بصرف النظر عن تحديده وتعيينه .

ووصف السهم بقوله : " من كنانتي " للدلالة على أن الغلام لا يريد أن يجعل للملـك أي سبب من أسباب قتله ولو بنسبة (١ %) ، حتى السهم لابد أن يكـون مـن كنانـة الغلام على الخصوص وبالذات ؛ ولذا أضاف الغلام الكنانة إلى ضمير المتكلم العائد إليه ، وكأنه يريد أن يقول للملك : ليس لك من الأمر شيء حتى السهم فلابـد أن تأخـذه مـن كنانتي أنا .

والغرض من إضافة الكنانة إلى ضمير المتكلم العائد إلى الغلام في قوله : " كنانتي " الدلالة على الاختصاص ، أي الكنانة الخاصة بي أنـا وحـدي ، ولا يخفـى أن التعبيـر بالإضافة هنا أوجز وأخصر مما لو قال : من الكنانة الخاصة بي .

---

[1] المفهم ٧ / ٤٢٥ ، إكمال إكمال المعلم ٧ / ٣٠٧ ، مُكَمِّل إكمال المعلم ٧ / ٣٠٧ .
[2] عارضة الأحوذي ١٢ / ٢٤٠ / لابن العربي المالكي / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / بدون تاريخ .

وذكر الغلام السهم في قوله : " ثم ضَعْ السهم في كبد القوس " مُعَرَّفًا بـ " أل " للدلالة على العهد الذكري لسبق ذكره في قوله للملك : " خذ سهمًا من كنانتي " ، فالسهم هنا هو نفس السهم الذي سبق ذكره قبل ذلك ؛ لأن اللفظ النكرة إذا أعيد معرفة فالثاني عين الأول .

وإضافة " كبد " إلى " القوس " للدلالة على شبه الملك والاختصاص ؛ إذ القوس لا تملك كبدها ، ولكن كبدها من سماتها .

وفي قول الغلام : " بسم الله " إيجاز بالحذف ، حيث حذف متعلق الجار والمجرور ، والتقدير " أرمي باسم الله " ، وجاء هذا الحذف اعتمادًا على القرينة ، وفي ذلك إيجاز واختصار للأسلوب .

والباء في " باسم " للدلالة على الاستعانة أي ارمني مستعينًا بـ " باسم الله " ، ودخلت الباء على " اسم " ؛ لأن الاستعانة بالاسم استعانة بالمسمى على أبلغ وجه ، ولأمر الله – سبحانه وتعالى – بالدعاء بأسمائه الحسنى في قوله تعالى : " وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا " [1]

واختار الغلام لفظ الجلالة " الله " ؛ لأن لفظ الجلالة هو العلم على الذات العَلِيَّة ، حيث يوصف ولا يوصف به كما هو الحال في أسماء الأعلام ، وهو أعرف الأسماء ، وهو الاسم الجامع لكل صفات الجلال والجمال .

وفي قول الغلام في البسملة " رب الغلام " تميم ، تتمم به الغلام البسملة ؛ لئلا يُوْهِم الملك الحاضرين أن الغلام أراد بقوله : " باسم الله " معبود ذلك الملك ، أو الملك نفسه على اعتبار أن الملك كان يدَّعي الألوهية في ذلك الوقت ، ونظير ذلك ما حُكِيَ عن السحرة في قوله تعالى : " قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ " [2] [3] .

---

[1] الأعراف : ١٨٠ .
[2] السورة نفسها : ١٢١ ، ١٢٢ .
[3] دليل الفالحين ١ / ١٦٨ .

واختار الغلام لفظ " رب " لدلالته على التربية المقتضية سوق النعمة لمن يربيه ، ونعم الله على الغلام لا تعد ولا تحصى ، وكفاه من ذلك نجاته له من مكر وتدبير هذا الملك الطاغية وحاشيته أيضًا .

وفي إضافة " رب " إلى " الغلام " دلالة على تشريف وتعظيم المضاف إليه ، وهو الغلام ، وهذا شرف ما بعده شرف ، وتعظيم ما بعده تعظيم .

وعطفت جملة " قل : بسم الله رب الغلام " على ما قبلها بـ " ثُمَّ " للتراخي في الرتبة وليس الزمن ، أي " لتفاوت منزلة ما بعدها وما قبلها ... وإلا فمقتضى المقام الإتيان بالفاء ؛ لأن ذلك الذكر مطلوب منه عقب وضع السهم في كبد القوس بلا مهلة " [1] .

والفاء في قول الغلام : " فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني " استئنافية ، للدلالة على أن ما بعدها ليس معطوفًا على ما قبلها ، وإنما هو بداية كلام جديد ، وهذا لا يعني عدم ترابط الأسلوب ، وإنما ذلك يعني فقط عدم التشريك في الإعراب ، فما بعدها جملة ابتدائية جديدة من مجموعة جمل توضح فكرة عامة ، وهذه الفاء ترجع عند التدقيق والتحقيق إلى الفاء العاطفة التي تعطف قصة على قصة ، أو معنى ومضمون على معنى ومضمون آخر ، أو الجمل التي لا محل لها لقصد الربط بينها [2] .

وأكد الغلام كلامه هذا بـ " إنّ " ؛ ليُطَمْئِن الملك ، ويؤكد له أنه إذا امتثل لأمره وقام بتنفيذ ما أمره به فإنه سيقتله ، وبما أن الملك قد يشك فيما اقترحه عليه الغلام وأمره به ، وقد يظن أن الغلام يسخر منه ويستهزئ به فقد أتى الغلام بهذا التوكيد ؛ ليزيل هذا الشك والتردد من نفس الملك .

وعضد الغلام هذا التأكيد باستخدام أداة الشرط " إذا " ؛ لأنها تستخدم في المظنون ظنًّا قويًّا والمرجح وقوعه على غيره ، وهذا يشعر الملك بأنه إذا فعل ما أمره به الغلام فسيصل إلى مأربه ، وهو قَتْل الغلام .

وآزر ذلك التأكيد أيضًا التعبير بالفعل الماضي " فعل " – وهو ماض لفظًا مستقبل معنىً – مع أداة الشرط " إذا " ، والغرض من ذلك هو تصوير وإبراز ما سيحصل وسيحدث في المستقبل في صورة الحاصل والحادث ، هذا بالإضافة إلى ما في التعبير

---

[1] السابق / نفس الجزء والصفحة .

[2] الجنى الداني / ٧٦ ، مغني اللبيب ١ / ١٨٧ .

عن المستقبل بلفظ الماضي من الدلالة على الرغبة لدى الغلام في تحقق الفعل ، حيث إنه قد علم أنه سَيُقْتَل لا محالة ، وعساه أن يصل بالقتل إلى ضالته المنشودة ، وهي إيمان الناس بالله رب العالمين .

وقال الملك للغلام : " فعلت " ولم يقل له : " عملت " ؛ لأن الفعل قد ينسب غالبًا إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد ، وقد ينسب إلى الجمادات كما سبق بيان ذلك [1] ، وكأن الغلام يريد أن يقول للملك : ما عليك فقط سوى تنفيذ ما آمرك به دون تفكير ولا اعتراض ولا حتى استفسار ؛ لأنك لست أهلًا للعقل والتفكير ، وهذا ذم ما بعه ذم .

وأشار الغلام إلى ما أمر الملك به باسم الإشارة " ذلك " لتمييز وتصوير ما أَمَرَ الغلام الملك به في صورة المحسوس المشاهد ، وكأن الملك من فَرْط غباوته لا يدري ولا يعرف إلا الأشياء المحسوسة .

وآثر الغلام اسم الإشارة " ذلك " الدال على بعد المشار إليه ؛ لبُعْد منزلة ومكانة ما أشار إليه – وهو قتل الملك له بهذه الكيفية التي شرحها وبيّنها له – ؛ لأن ذلك القتل بتلك الصورة سيؤدي إلى غاية نبيلة وعظيمة ، وهي دخول الناس في الإيمان ، والأمور بمقاصدها ، وشرف النتيجة من شرف المقدمة ، ومنزلة الوسيلة من منزلة الغاية .

وإسناد القتل إلى الملك في قول الغلام : " قتلتني " على سبيل المجاز العقلي بعلاقة السببية حيث أن فعل الملك وامتثاله لما أمره الغلام به ما هو إلا سبب في قتل الغلام ؛ لأن المميت للغلام حقيقة هو الله سبحانه وتعالى ، وإنما قصد الغلام مما أمر به الملك " إفشاء توحيد الله بين الناس وإظهار ألا مؤثر في شيء سواه ، ولم يفطن الملك لذلك لفَرْط غباوته " [2] .

ولعل سائلًا يسأل ويقول : لماذا لم يعترض الملك على الطريقة التي بَيَّنَها الغلام له وأمره بها لقتله ؟ والجواب على ذلك هو أن الملك وجد نفسه عاجزًا عن قتل الغلام ، ووجد أنه لو استمر في عملية اختراع طُرُق جديدة لقتل الغلام لفشل فيها كما فشل فيما سبق ، ووجد أن بقاءه أصبح يشكل خطرًا بالنسبة له ؛ لأن الناس قد يزيد إعجابهم به ،

---

[1] البحث صـ ٥١ .
[2] دليل الفالحين ١ / ١٦٨ .

وانجذابهم إليه ، وتأثرهم به ، فاضطر هذا الطاغية الجبار إلى اللجوء إلى تنفيذ ما أمره به الغلام ؛ لأنه يريد أن يقتله ويتخلص منه بأي وسيلة كانت ، وبأي حال من الأحوال ، وفي أسرع وقت ممكن ، وهو لا يدري ما يختبئه القدر له !!

والفاء في قوله – ﷺ – عن استجابة الملك لأمر الغلام : " فجمع الناس في صعيد واحد " عاطفة ، حيث عطفت جملة " جمع الناس في صعيد واحد " على جملة أخرى محذوفة ، والتقدير " فامتثل الملك لما أمره به الغلام ، فجمع الناس في صعيد واحد " ، والعطف بالفاء هنا يدل على ترتب استجابة الملك وامتثاله للأمر على أمر الغلام له ، هذا بالإضافة إلى ما في العطف بالفاء من الدلالة على التعقيب بلا مهلة ، أي تعقيب الاستجابة والامتثال من الملك على أمر الغلام له مباشرة وبلا فاصل زمني ؛ لأن الملك كان يود أن يتخلص من الغلام في أقل من لمح البصر ، وكأن سرعة الامتثال والاستجابة طوت جملة " امتثل الملك لما أمره به الغلام " من الكلام ، حيث لم يعد لها زمن ؛ لكي يُتَلَفَّظ بها .

والمقصود بـ " الناس " هنا هم الناس الذين عناهم وقصدهم الغلام في قوله للملك قبل ذلك : " تجمع الناس في صعيد واحد " ، وهم أهل مملكة الملك ؛ لأن الفظ المعرفة إذا أعيد ذكره معرفة كان الثاني عين الأول .

وعطفت جملة " صلبه على جذع " على جملة " فجمع الناس في صعيد واحد " بالواو لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين ، حيث إن الجملتين متفقتان في الخبرية لفظًا ومعنى ، ولما بين الجملتين من اتفاق في صيغة الفعل ، ففعلا الجملتين بصيغة الماضي ، ولكون المسند إليه فيهما واحدًا ، وهو الضمير العائد إلى الملك ، وفي ذلك ترابط للأسلوب ، وتلاحم لأجزائه .

ونلحظ هنا أن الملك استجاب لأمر الغلام استجابة كاملة دون أن يحيد عما أمره به قيد أنملة ، ومن يتأمل كلام النبي – ﷺ – وهو يحكي ويبين لنا كيفية امتثال الملك لما أمره به الغلام يجد ما يؤيد ذلك ويؤكده بوضوح كامل وجلاء تام .

فنجد أن الملك بدأ أولًا " فجمع الناس في صعيد واحد " ، وأتى بالغلام " وصلبه على جذع " ، " ثم أخذ سهمًا من كنانته " ، " ثم وضع السهم في كبد القوس " ، " ثم قال : بسم الله رب الغلام " ، " ثم رماه " ، " فوقع السهم في صدغه " ، " فوضع يده في صدغه

في موضع السهم" ، " فمات " . فمن يقرأ ويتأمل تلك الجمل وما فيها من حروف عطف ومتعلقات يجد أنها تحكي الأحداث التي أمر الغلام الملك بها تمامًا على الترتيب دون أدنى زيادة أو نقصان ، ودون أدنى تقديم أو تأخير .

وعطفت جملة " وقع السهم في صدغه " على جملة " رماه " بالفاء لإفادة الترتيب والتعقيب ، أي أن وقوع السهم في صدغ الغلام حدث بعد الرمي مباشرة ، وجاء موصولًا به بلا مهلة زمنية ، وكأن الفاء حركت زمن الحدث الأول وأمدته حتى بلغت به أول زمن الحدث الثاني ، هذا بالإضافة إلى ما في العطف بها من الدلالة على أن وقوع السهم في صدغ الغلام جاء مرتبًا على رَمْي الملك له به تَرَتَّب النتيجة على المقدمة ، وأتى مسببًا عنه ، إذ رَمْي الملك الغلام بالسهم سبب في وقوعه في صدغه .

ونلحظ هنا أن " السهم " ذُكِرَ مظهرًا في قوله - ﷺ - حكاية عن تنفيذ الملك لما أمره به الغلام : " ثم وضع السهم في كبد القوس " ، وقوله : " ثم رماه فوقع السهم في صدغه " ، وقوله - ﷺ - عن الغلام : " فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات " ، وكان مقتضى الظاهر أن يذكر مضمرًا لسبق ذكره صريحًا في قوله - ﷺ - : " ثم أخذ سهمًا من كنانته " ، ولعل الغرض من هذا الإظهار هو تمكين وتوكيد المعنى في نفس المتلقي ، وإبرازه وتثبيته وتقريره في ذهنه ، هذا بالإضافة إلى ما في ذلك من زيادة في تسجيل وتشنيع هذا الفعل القبيح على هذا الملك الطاغية الضِّلِّيْل .

ورَمْي السهم ووقوعه في صدغ الغلام بالذات دون غيره من الأعضاء ؛ لأن الرمي في الصدغ مظنة القتل والفتك غالبًا ، وهذا ما يتمناه الملك تخلصًا من الغلام ، ويسعى الغلام إليه رغبةً في تحقيق مهمته التي يصبو إليها ، وهي تحقيق الإيمان ودخول الناس فيه ، وشوقًا للقاء ربه ولما أعده له من نعيم مقيم في الآخرة .

وعطفت جملة " وضع يده في صدغه " على جملة " وقع السهم في صدغه " بالفاء للدلالة على أن وَضْع الغلام يده في صدغه حدث بعد وقوع السهم فيه مباشرة ، وبدون فاصل زمني بين الحدثين ، فالحدثان قد اتصل رأس ثانيهما بعقب أولهما ، وفي هذا العطف دلالة أيضًا على أن وضع الغلام يده في صدغه إنما جاء مُرَتَّبًا على وقوع السهم في صدغه ومسببًا وناتجًا عنه .

واستخدم النبي – ﷺ – حرف الجر " في " في قوله عن الغلام " فوضع يده في صدغه " بدلًا من " على " ، إذ كان الظاهر أن يقال : " فوضع يده علي صدغه " ، وإنما عدل عن حرف الاستعلاء " على " إلى حرف الظرفية " في " للدلالة على شدة تمكن صدغ الغلام من يده نتيجة لشدة التألم والتوجع من السهم ، وفي ذلك استعارة تبعية ؛ لأن صدغ الغلام لا يصلح للظرفية الحقيقية ، ولكن لما كانت يد الغلام متمكنة من صدغه شُبِّه صدغه بالظرف الحقيقي بجامع التمكن في كلّ ، ثم استعير لفظ " في " الدال على الظرفية وهو جزئية من جزئيات المشبه به واسْتُعْمِلَ في المشبه على سبيل الاستعارة التبعية .

وذكر النبي – ﷺ – حكاية عن فعل الغلام لفظ " صدغ " مظهرًا " هنا ، وكان مقتضى الظاهر أن يذكر مضمرًا لسبق ذكره صريحًا في الجملة السابقة " فوقع السهم في صدغه " ، فيقال : " فوضع يده فيه " ، ولعل الغرض من هذا الإظهار هو توكيد المعنى وتقريره في نفس المتلقي وتثبيته في ذهنه ، وإبراز هذه الصورة البشعة – وهي صورة السهم في صدغ الغلام – وزيادة وقوة تمكينها في نفس المخاطب ؛ إذ التعبير بالاسم الظاهر أقوى وأبلغ في إبراز المعنى واستقراره وتثبيته في النفس من التعبير بالضمير .

وعطفت جملة " مات " على جملة " فوضع يده في صدغه في موضع السهم " بالفاء للإشارة إلى أن موت الغلام حدث بعد وضعه يده في صدغه في موضع السهم مباشرة دون مهلة زمنية ، وجاء كذلك مُرَتَّبًا عليه ، ومسببًا عنه ، وهكذا وجدنا الفاء أظهرت لنا الأحداث متتابعة ومتتالية بعضها بعد بعض ، وأبرزتها مرتبة بعضها على بعض تَرَتُّب النتيجة على المقدمة والمُسَبَّب على السبب ، وكأن هذه الأحداث المتعددة حَدَث واحد وحكاية واحدة .

وقال النبي – ﷺ – عن الغلام : " مات " ، ولم يقل : " قُتِلَ " رغم أن كلًا من الموت والقتل زوال للروح عن الجسد ؛ لأن الموت هو خروج الروح وهذا من فعل الله سبحانه وتعالى ، والقتل هو تلف الجسد وهو من فعل الإنسان بإرادة ومشيئة الله جلّ وعلا ، يعقبه الموت الذي هو فعل الله عزّ وجلّ ، فذكر النبي – ﷺ – الموت الذي هو فعل الله عزّ وجلّ ، ولم يذكر القتل باعتبار أن الملك الطاغية سبب فيه ؛ لكي يعلم المتلقي أن ما

تمّ للغلام هو من فعل الله تبارك وتعالى ، وما قام به الملك الطاغية ما هو إلا سبب لم يكن لهذا الملك الظالم فيه حول ولا قوة .

وفي قوله – ﷺ – : " فوقع السهم في صدغه ، فوقع السهم في صدغه في موضع السهم " جناس غير تام بين الفعلين " وقع " و " وضع " ، حيث اختلف الفعلان في نوع الحرف الثاني فيهما ، وفي ذلك تجاوب موسيقي تطرب له الأذن ، وتهتز له أوتار القلوب ، وتتأثر به النفوس أيما تأثير ، هذا بالإضافة إلى ما يضفيه الجناس على الأسلوب من ترابط وتلاحم وتماسك لأجزائه لما بين الطرفين من المشابهة الشكلية ، ولا سيما أن الأسلوب هو الذي طلبه ، والمقام هو الذي استدعاه ، والسياق هو الذي اقتضاه ، فجاء الجناس هنا وقد حَقَّقَ حسن الإفادة مع أن الصورة أشبه بصورة التكرير والإعادة ، هذا بالإضافة أيضًا إلى ما في الجناس من تشويق للنفس ، وتنشيط للفكر .

المبحث السابع : إيمان الناس بالله – عزّ وجلّ – وانتقام الملك منهم :

فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ ؟ قَدْ – وَاللهِ – نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ [1] فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ ، فَخُدَّتْ ، وَأَضْرَمَ [2] النِّيرَانَ ، وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ [3] فِيهَا ، أَوْ قِيلَ لَهُ : اقْتَحِمْ ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا ، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ : يَا أُمَّهْ ، اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ " .

لقد أبان لنا النبي– ﷺ – في هذا المقطع من الحديث عن العاقبة التي نتجت عن قتل الغلام بالكيفية التي أمر بها الملك ، وهي إيمان الناس بالله رب العالمين ، كما أبان لنا أيضًا عن العاقبة التي ترتبت على إيمان هؤلاء الناس ، وهي إحراق الملك لهم بالنار في الأخاديد ، وما نقم الملك منهم إلا أن آمنوا بالله العزيز الحميد .

وعَطْفُ جملة " قال الناس : آمنا برب الغلام " على جملة " مات " بالفاء يوحي بأن إعلان الناس جميعًا إيمانهم بالله رب العالمين حدث بعد موت الغلام مباشرة ، وبدون مهلة زمنية ، وجاء مُتَرَتِّبًا عليه تَرَتُّب النتيجة على المقدمة ، ومسببًا عنه ؛ لأن الناس لما رأوا الآية العظمى الشاهدة لله تعالى بالوحدانية ، وأنه الفاعل المختار ، ولا فاعل سواه ، وأنه هو الإله الحق ، ما كان منهم إلا أن قالوا بملء قلوبهم وأفواههم : " آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام " ، وكأن قوة الواحد القهار قد نزعت مهابة الملك الظالم من قلوب الناس ، وألقت في أفئدتهم الخشية لله رب العالمين ، فلم يكن أمامهم إلا سرعة الامتثال لما يدعو إليه الغلام ، وهو الإيمان بالله – عزّ وجلّ – وحده دون سواه .

---

(1) الأُخْدُود : الشَّقّ المستطيل العظيم في الأرض ، والجمع الأخاديد . النهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ٣٢ ، لسان العرب / مادة : خدد .

(2) أَضْرَمَ : أوقد وأشعل : يقال : ضَرِمَت النارُ ضَرَمًا : اتقدت واشتعلت والْتَهَبَتْ، وأَضْرَمَ فلانٌ النيرانَ : أوقدها وأشعلها . النهاية في غريب الحديث والأثر ٣ / ١٧٨ ، لسان العرب ، المعجم الوسيط / مادة : ضرم .

(3) الإحماء : هو التسخين ، يقال : أحمى الشيء في النار : سَخَّنَه ، وأحمى الحديدة ونحوها في النار سَخَّنَها . لسان العرب / مادة : حمي ، إكمال إكمال المعلم ٧ / ٣٠٧ ، مُكَمِّل إكمال المعلم ٧ / ٣٠٧ ، المعجم الوسيط / مادة : حمي .

وتعريف " الناس " باللام للدلالة على الاستغراق العرفي ، لاستحالة أن يكون المقصود بالناس هنا الناس الموجودين كلهم في ذلك الزمان ، وإنما المقصود الناس الموجودون في مملكة هذا الملك الطاغية الجبار العنيد .

وقال الناس : " آمنا " ، ولم يقولوا : أسلمنا ؛ لأن الإيمان عقيدة في القلب بخلاف الإسلام فهو عمل بالجوارح ؛ ولذا فهم قد أفصحوا عما استقر في قلوبهم ، وخالطت بشاشته أفئدتهم ، وهو الإيمان بالله واليقين والتصديق به ، ثم يأتي بعد ذلك العمل ، وتعبيرهم بصيغة الماضي يوحي بأن الإيمان وقع وثَبَتَ واستقر في قلوبهم .

والباء في قول الناس : " آمنا برب الغلام " للدلالة على التعدية والنقل ، أي نقل وإيصال معنى الفعل اللازم إلى المفعول به .

واختار الناس لفظة " رب " للدلالة على التربية التي تقتضي وتستلزم عناية ورعاية المُرَبِّي بالمُرَبَّى ، وإسداء الخير له ، ودفع الضر عنه ، أو لعلهم اختاروا هذه اللفظة ؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون لفظ الجلالة " الله " العلم على الذات العَلِيّة .

وأضيفت لفظة " رب " هنا إلى " الغلام " ، وتَعَيَّنَ هنا التعريف بالإضافة ؛ لأنها أخصر الطرق وأوضحها ، وفي هذه الإضافة تشريف وتكريم وتعظيم للمضاف إليه وهو الغلام ، وخَصَّ الناسُ " الغلام " بالذكر مع أن الله – سبحانه وتعالى – رب العالمين ؛ لأن الغلام هو داعي الناس للإيمان ، هذا بالإضافة إلى أنهم لو قالوا : " آمنا بالرب " لاحتمل أن يكون المراد بـ " الرب " هنا هذا الملك الظالم ، فأتى الناس بكلامهم صريحًا وواضحًا ؛ لأنهم قصدوا بـ " الرب " الرب الذي يدعو الغلام لعبادته والإيمان به ، وهو الله سبحانه وتعالى .

وكرر الناس جملة " آمنا برب الغلام " ثلاث مرات للدلالة على تقرير وتوكيد أصالة وعمق وقوة ورسوخ الإيمان في نفوسهم ، وشدة تمكينه من قلوبهم ، حيث قد خالطت بشاشته قلوبهم ، وملك أقطار فكرهم ، وسيطر على عقولهم ؛ ولذا فقد أعلنوها جليّة واضحة أمام الجميع دون مبالاة بما يكون بعد ذلك من أمر هذا الملك الظالم معهم ، وكأنهم آمنوا ولسان حالهم يقول لهذا الملك الطاغية : ها نحن قد آمنا دون اكتراث بما يكون منك تجاهنا ، فاقض ما أنت قاضٍ ، ولله درّ المتنبي حيث قال :

وَإِذا كـانَت النُّـــفُوسُ كِبـــارًا ... تَعِبَتْ فـــي مُـــرادِهـا الأَجْسـامُ [1]

وعُرِّفَ " الغلام " بـــ " أل " للدلالة على العهد الحضوري ، أي هذا الغلام الحاضر بيننا ، والمشاهد أمامنا ، كما في قوله تعالى : " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ " [2] ، أي هــذا اليـــوم الحاضر ، وهذا أبلغ في التعيين والتبيين والتحديد .

وجاءت جملة " آمنا برب الغلام " الثانية مفصولة عن الأولى ، وكذلك الجملة الثالثـــة لم تعطف على الثانية ؛ لأن كل واحدة منهما مؤكدة توكيدًا لفظيًا لسابقتها ، وبهذا فقـــد تُرِكَ العطف لقوة الصلة بين الجملتين ؛ لأن التوكيد والمؤكَّد كالشيء الواحد ، ولا يصح عطف الشيء على نفسه .

والفاء في قوله – ﷺ – : " فأُتِيَ الملك فقيل له : أَرَأَيْتَ ما كنت تحذر ؟ قد – والله – نزل بك حَذَرك " عاطفة ، حيث عطفت جملة " فأُتِيَ الملك " على جملة " قال الناس : آمنا برب الغلام " ، وعَطَفَتْ كذلك جملة " قيل له : أَرَأَيْتَ ما كنت تحذر ؟ قد – والله – نـــزل بك حَذَرك " على جملة " فأُتِيَ الملك " ، وفي هذا العطف بالفـــاء دلالـــة علـــى الترتيـــب والتعقيب ، أي أن إتيان من أتى الملك جاء بعد إعلان الناس إيمانهم مباشرة ، وبلا مهلة زمنية ، ومرتبًا عليه ، ومسببًا عنه ، وكذلك قول من أتى الملك له : " أَرَأَيْتَ مـــا كنـــت تحذر ؟ قد – والله – نزل بك حَذَرك " قد حدث بعد إتيانه إياه مباشـــرة ، وبـــلا مهلـــة ، ومرتّبًا عليه ، ومسببًا عنه ، وهكذا جاءت الأحداث مرتبة بعضها بعد بعض ، ومترتبـــة بعضها على بعض ترتب النتيجة على المقدمة والمعلول على العلة .

وبُنِيَ الفعلان " أُتِيَ " و " قِيْلَ " للمجهول وحُذِفَ الفاعل ؛ لأن الغرض هو بيان الإتيان إلى الملك وإخباره بما أُخْبِرَ به بصرف النظر عمن أتاه وقال له ، ولا فائدة مـــن تعيـــين الفاعل ولا غرض من تحديده ، وفي هذا الحذف مع وجود ما يدل على المحذوف إيجـــاز واختصار ، وتحريك لخيال المخاطب ، وإثارة لعواطفه وأحاسيسه لإدراك ما طُوِيَ ذكـــره من العبارة وسُكِتَ عنه .

---

[1] شرح ديوان المتنبي ٤ / ٦٤ / بحر الخفيف / للبرقوقي / دار الكتاب العربي / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .

[2] المائدة : ٣ .

والاستفهام في قول من أتى الملك : " أرأيت [1] ما كنت تحذر ؟ " للتعجب من حال هذا الملك الظالم الضِّلِّيل الطاغية المدعي الألوهية ، حيث قد نزل به ما كان يحذر ويخاف ، وهو إيمان الناس بالله رب الغلام الواحد الأحد الفرد الصمد ، وفي هذا الاستفهام نوع من التشويق ؛ لأن الاستفهام عن رؤية ما كان يحذره الملك ويحترز منه في قول مَنْ أتاه له : " أرأيت ما كنت تحذر ؟ " يذهب بذهن السامع مذاهب شتى ؛ ليتعرف المقصد بهذا الاستفهام ، ثم يأتي البيان بعد ذلك في قوله : " قد – والله – نزل بك حذرك " ، أي قد وقع ما كنت تحترز وتحذر منه ، وهو إيمان الناس برب الغلام ، وحينما يأتي البيان بعد تشوق يكون ذلك أدعى لتثبيت الفكرة وتمكينها واستقرارها في النفس .

وبما أن الأمر الذي كان يحذره الملك – وهو إيمان الناس برب العالمين – شيء عجيب بالنسبة للملك وحاشيته فقد استخدم مَنْ أتى الملك مستفهمًا هذه الصيغة " أَرَأَيْتَ " ؛ لأن الاستفهام بها " لا يستعمل إلا في الاستخبار عن حالة عجيبة لشيء " [2] .

وقال مَنَ أتى الملك " تحذر " ، ولم يقل : " تخاف " ؛ لأن الخوف توقع الضرر المشكوك في وقوعه ، أما الحذر فهو توقي الضرر سواء كان مظنونًا أو متيقنًا ، والحذر يدفع الضرر ، بخلاف الخوف فهو لا يدفع الضرر ؛ ولذا يقال : خذ حِذْرك ، ولا يقال : خذ خوفك [3] ، فالخوف شعور قويّ مُزْعِج تجاه الخطر ، أما الحذر فهو محاولة تجنب الخطر .

وجاء من أتى الملك بجملة " قد – والله – نزل بك حَذَرك " مؤكدة بحرف التحقيق " قد " والقسم " والله " المعترض بين " قد " ومدخولها " نزل بك حَذَرك " ؛ ليؤكد للملك ما نزل

---

[1] أرأيت : أصلها جملة خبرية صارت بعد النقل وبعد ملازمة همزة الاستفهام لها جملة إنشائية ، فهي أسلوب معناه أخبرني ، وهو إما أن يكون منقولًا من رأيت بمعنى أبصرت أو عرفت ، فيحتاج لمفعول واحد ، كأنه قيل : أأبْصَرْتَه وشاهدت حاله العجيبة ، أو أعَرَفْتَها ؟ أخبرني عنها ، وإما أن يكون تركيبًا مركبًا من همزة الاستفهام و" أرى " التي بمعنى علم ، وهي تحتاج لمفعولين ، وتاء المخاطب ، وهي ضمير مبني على الفتح دائمًا في محل رفع فاعل ، وقد تزاد عليها كاف خطاب تشبه ضمير الخطاب المنصوب بحسب المخاطب واحدًا أو متعددًا . شرح الكافية ٢ / ٩٩٩ / للرضي / تحقيق : د / يحيى بشير صبري / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / الرياض / الطبعة الأولى / ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦، التحرير والتنوير ١٥ / ١٥٠ ، النحو الوافي ١ ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

[2] شرح الكافية ٢ / ٢٩٩ .

[3] الفروق اللغوية / ٢٤٠ .

به ، وهو إيمان الناس برب الغلام سبحانه وتعالى ، وما كان الملك ليظن ولا ليحسب أن هذا سيحدث ، وكأنه يريد أن يقول له : إن ما كنت تخشاه وتحذر منه أن يحدث ها هو الآن قد حدث فماذا أنت فاعل ؟ يقول ابن علان : " والفصل بين قد ومدخولها بالقسم للتأكيد والاهتمام الذي يقتضيه المقام " [1] .

والباء في جملة " نزل بك حَذَرك " للدلالة على التعدية والنقل ، أي نقل وإيصال معنى الفعل إلى المفعول به .

وفصلت جملة " قد آمن الناس " عن جملة " قد – والله – نزل بك حَذَرك " لكمال الاتصال ، حيث إنها مفسرة ومبيّنة لها ، ففي الجملة الأولى خفاء وإبهام ، وفي الثانية بيان وإيضاح ، إذ الثانية بيان وتفسير لما كان يحذره الملك ، وهو كفر الناس به وإيمانهم بالله رب العالمين تبارك وتعالى ، وبما أن البيان والمُبَيَّن كالشيء الواحد فقد ترك العطف بين الجملتين لما بين الجملتين من قوة الترابط ، وشدة التلاحم ، وفي البيان بعد الإبهام هنا وقع جيد وأثر حسن في النفس ؛ لأن الشيء إذا ورد مبهمًا تشوقت النفس لتفسيره ، وتطلعت لبيانه ، فإذا جاء البيان والتفسير بعد ذلك وقد وجد النفس يقظة ومتطلعة ومتشوقة تمكن فيها فضل تمكن ، وتقرر وتأكد لديها .

وجاء من أتى الملك بهذه الجملة " قد آمن الناس " مؤكدة بحرف التحقيق " قد " ؛ لتوكيد مضمونها ، أي أن ما كان يحذره الملك وهو إيمان الناس بالله – عزّ وجلّ – وكفرهم بالملك قد حدث وتحقق كل التحقق ، وأصبح أمرًا واقعًا لا مفر منه ولا مهرب .

والفاء في جملة " فأمر بالأخدود في أفواه السكك فَخُدَّتْ " استئنافية ؛ لأن ما بعدها ليس معطوفًا على ما قبلها ، وإنما هو بداية كلام جديد مُرَتَّب على كلام سابق تَرَتُّب مضمون على مضمون ، ومعنى على معنى ، وليس متولدًا منه ، ونلحظ في هذه الفاء هنا دلالة على السببية والتعليل ؛ لأن أمر الملك الطاغية بحفر الأخاديد إنما جاء ناتجًا عن إيمان الناس ومسببًا عنه .

وحُذِفَ مفعول الفعل " أمر " ، والتقدير : " أمر خَدَمه أو حاشيته أو جنوده " ، وإنما حُذِفَ ؛ لأن الغرض هنا هو إثبات الأمر للملك الظالم وصدوره منه من غير نظر إلى

---

[1] دليل الفالحين ١ / ١٦٩ .

تعلقه بمفعول معين لعدم تعرض الغرض بذكره ، وفي هذا الحذف توفير العناية على إثبات الفعل للفاعل .

والباء في " بالأخدود " للدلالة على التعدية والنقل ، أي نقل معنى الفعل إلى مدخولها ، وهي داخلة هنا على مضاف محذوف ، والتقدير : " فأمر بخَدِّ الأُخْدود " ، وفي هذا الحذف مع دلالة القرينة على المحذوف لون من الإيجاز والاختصار للأسلوب .

واللام في " الأخدود " و " السكك " للدلالة على العهد الذهني ، أي الأخدود والسكك المعهودة في الذهن بين الملك ومَنْ أمرهم بذلك .

والفاء في " فخُدَّتْ " عاطفة ، حيث عطفت جملة " خُدَّتْ " على جملة " أَمَرَ بالأخدود في أفواه السكك " ، وفي هذا العطف دلالة على أن خدّ الأخاديد حدث بعد صدور الأمر من هذا الملك الجبار العنيد مباشرة ، وبدون مهلة زمنية ، ودون استفسار ولا تلكؤ ولا أدنى تأخير ، فبمجرد صدور الأمر ابتدئ التنفيذ والامتثال له مباشرة ، وكيف يكون هناك تأخير ، ومن يتأخر عن ذلك يكن مصيره التعذيب والإحراق بالنار ؟

وعُطِفَتْ جملة " أَضْرَمَ النيران " على جملة " أَمَرَ بالأُخْدُود في أفواه السكك " بالواو للتوسط بين الكمالين ؛ لاتفاق الجملتين في الخبرية ، ولوجود المناسبة المسوغة للعطف بينهما وهي اتفاق الجملتين في الفعلية وصيغة الفعل ، فهما فعليتان فعلهما ماض ، والفاعل فيهما واحد ، وهو الملك الظالم اللعين ، أي أنه كان منه الأمر بخَدّ الأخاديد ، وكان منه أيضًا إضرام النيران .

وفي إسناد الفعل " أَضْرَمَ " إلى الضمير العائد إلى الملك مجاز عقلي بعلاقة السببية ؛ لأنه لم يباشر ذلك الفعل بنفسه ، وإنما أمر به ، ولكن لما كان هو الآمر به والسبب فيه أُسْنِدَ إليه ، وفي هذا إشعار بمدى حرص هذا الملك الجبار وعنايته واهتمامه بهذا الأمر الشنيع ، وهو إحراق المؤمنين بالنار ، ولعل الله – سبحانه وتعالى – قد جعلها عليهم بردًا وسلامًا ، وما ذلك على الله بعزيز .

وفي التعبير بالفعل " أَضْرَمَ " دون أَشْعَلَ دلالة على الشدة والهَيَجان للنار والمبالغة في الإحراق .

وفي التعبير بـــ " النيران " بالجمع دون الإفراد دلالـــة علـــى كثـــرة مـــن أُحْرِقُـــوا ، والمبالغة في التنكيل والتعذيب لهؤلاء المؤمنين بالله – تبارك وتعالى – الذين ليس لهـــم ذنب سوى الإيمان بالله العزيز الحميد .

وفي التعبير بالفعل " أَضْرَمَ " وإسناده إلى الملك اللعين والتعبير بـــالجمع " النيـــران " إشارة إلى الحالة النفسية التي وصل إليها هذا الملك الطاغية بعد وقوع ما كـــان يحـــاذر ويحترز منه ، فقد ثارت ثورته ، وطار عقله ، وفقد صوابه ، وجُنَّ جُنُونُه ، ولـــم يعـــد أمامه سوى الحل الانتقامي والإبادة الجماعية لأولئك المؤمنين !!!

وعُطِفَتُ جملة " قال : من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيهـــا " علـــى جملـــة " أَضْـــرَمَ النيران " بالواو للتوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظًا ومعنى ، ولوجود المسوّغ للعطف بينهما وهو كون الجملتين فعليتين ماضيتين ، وكون المسند إليه فيهمـــا واحدًا ، وهو الضمير العائد إلى الملك ، أي كان منه القول والإضرام للنيران .

واستخدم هذا الملك اللعين أداة النفي" لم " ؛ لأنها تقلب معنى الفعل المـــضارع إلـــى الماضي ، والنفي بها ممتد ومتصل بزمن التكلم ، أي من لم يرجع عن دينه قبـــل ذلـــك وإلى الآن فأحموه في النار ، هذا إلى أن المنفي بها لا يتوقع حصوله ، وكأن الملك قـــد استخدم " لم " لَمّا رأى وقرأ علامات وأمارات عدم رجوع الناس عـــن ديـــنهم ، وكيـــف يرجعون وقد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، واستقر في أفئدتهم ، وثبت ورســـخ فـــي عقولهم ؟

وفي إضافة " دِيْن " إلى الضمير العائد إلى مَنْ آمن بالله – عـــزّ وجـــلّ – وحـــده تشريف وتعظيم للمضاف لعظم المضاف إليه ، هذا بالإضافة إلى ما فـــي الإضـــافة مـــن الإيجاز والاختصار ؛ لأن التعريف بها أوجز وأخصر طرق التعريف ، فقـــول الملـــك : " دينه " أوجز مما لو قال مثلًا : " الدين الذي يعتنقه " .

والفاء في " فأقحموه فيها " رابطة للجواب بالشرط ، وفي ذلـــك تـــرابط للأســـلوب ، وتشابك لأطرافه وتلاحم لأجزائه .

والغرض من الأمر في قول الملك : " فأحموه " هو التكليف والوجوب والإلزام ؛ لأنـــه من أعلى – وهو الملك الظالم المتجاوز الحد في الطغيان – إلى أدنى ، وهم حاشية الملك وجنوده المؤتمرون بأوامره والممتثلون لها دون تردد أو تلكؤ أو تقاعس ، وإلا فالعقاب

هو التعذيب والحرق ، ولا يخفى ما في التعبير بالإحماء من الدلالة على قوة الالتهاب ، وشدة التعذيب ، والمبالغة في الإحراق لأولئك المؤمنين الأبرار .

و " أو " في " أو قِيْلَ له اقتحم " للدلالة على الشك من الراوي ، فهو لا يدري على وجه التحديد أي اللفظين – " أحموه فيها " أو " قيل : لم اقتحم " – قال الرسول ﷺ ، فيحتمل أن يكون الملك الظالم أمر حاشيته وجنوده بإلقاء مَنْ أبى الرجوع عن دينه في النار كُرْهًا ، ويحتمل أن يكون أولئك المعذَّبون قد أُمِرُوا بأن يُلْقُوا هم بأنفسهم في النار ، والويل كل الويل من هذا الملك الجبار الباطش لمن يأبى ويمتنع ، أو يتردد ويتقاعس ، أو حتى يناقش ويستفسر .

وبني الفعل " قِيْلَ " للمجهول ، وحذف الفاعل لعدم تعلق الغرض بمعرفته والعلم به ، إذ لا فائدة من تعيينه وتحديده .

والغرض البلاغي من " اقتحم " هو الوجوب والتكليف والإلزام ؛ لأنه صادر ممن تَلَقَّى الأوامر من الملك الطاغية ؛ ولذا فليس هناك خيار سوى خيار واحد هو الامتثال والإذعان ، ولا يخفى ما في التعبير بصيغة الافتعال " اقتحم " من الدلالة على هَوْل هذا العذاب وعِظَم ذلك الانتقام .

وحُذِفَ مفعول هذا الفعل لدلالة السياق وقرينة الحال عليه ، أي" اقتحم النار " ، وفي ذلك الحذف إيجاز للأسلوب واختصار له .

والفاء في قوله – ﷺ – :" ففعلوا " عاطفة على محذوف ، والتقدير : " فامتثلوا لأمر الملك ففعلوا " ؛ وذلك لعدم جواز عطف الخبر على الإنشاء ، أو هي عاطفة لما بعدها على ما قبلها ، ولكن ذلك من قبيل عطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر ، وأيًا كان الأمر فالعطف بالفاء هنا يدل على سرعة الإذعان والامتثال ، فجاء التنفيذ والتعذيب بعد صدور الأمر مباشرة ، وبدون مهلة زمنية ، وجاء كذلك مسببًا عنه ، ومرتبًا عليه تَرَتُّب النتيجة على المقدمة ، وكأن أولئك المؤمنين لما استقر الإيمان في قلوبهم ، وخالطتها بشاشته ضَحَّوْا بأنفسهم حتى أصبحوا كأنهم لم يحسوا بالعذاب ، وكأن الله – سبحنه وتعالى – جعل النار عليهم بردًا وسلامًا ، فأخذوا يتدافعون ويتدفقون في الخنادق المضرمة بالنيران ؛ لكي يحصلوا على مرضاة الله ، وينالوا ثوابه العظيم ، ويفوزوا بأجره العميم .

وحذف مفعول الفعل " فعل " هنا ، والتقدير : " ففعلوا ما أُمِرُوا به " لدلالة السياق عليه " ، أو أنه حُذِفَ ؛ لأن الغرض هو إثبات الفعل للفاعل وتوفير العناية له ، وهو وجود الفعل والامتثال والانصياع منهم دون تردد أو تقاعس .

والتعبير بـ " حتى " في قول النبي – ﷺ – : " حتى جاءت امرأة ومعها صبيّ لها فتقاعست أن تقع فيها " دلالة على أن التعذيب لهؤلاء المؤمنين قبل هذه المرأة قد مرّ بمراحل مختلفة ، وصور متعددة ، وعُذِّبَ مَنْ عُذِّبَ ، وأُحْرِقَ مَنْ أُحْرِقَ حتى جاء الدور على هذه المرأة بحالها الذي يستثير الشفقة ويحض على الرحمة لوجود ابنها الصبي الرضيع معها .

وفي تنكير " امرأة " دلالة على أن المقصود بالمرأة هنا امرأة مفردة من جنس النساء دون تعيين أو تحديد لشخصها ، حيث إنها لم تقصد باعتبار ذاتها ، وإنما قصدت باعتبارها هي وصبيها نموذجًا ورمزًا للصبر على البلاء في سبيل الله – عزّ وجلّ – وابتغاء مرضاته .

وفي اقتران جملة الحال في قوله – ﷺ – : " جاءت امرأة ومعها صبي [1] " بالواو دلالة على أن جملة الحال هنا استؤنف بها خبرًا جديدًا ، ولا يقصد ضمها إلى الفعل الواقع في صدرها في إثبات واحد ، ولا تنزيلها منه منزلة المفرد ، فالنبي – ﷺ – أثبت المجيء للمرأة ، ثم استأنف معنى جديدًا ، وابتدأ إثباتًا ثانيًا ، وهو معيّة الصبي لأمه ، ولما كان المعنى على استئناف الإثبات جيء بالواو لربط الجملة الثانية بالأولى وضمها إليها [2] .

---

[1] جملة " ومعها صبي " يجوز أن تكون حالًا من امرأة بدليل اقترانها بالواو ، ومجيء الحال من النكرة هنا جائز لوجود المسوغ وهو اقتران جملة الحال بالواو ، ويجوز أن تعرب صفة ؛ لأن الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال ، وإنما جاءت الواو هنا للدلالة على شدة لصوق الصفة بالموصوف كما ذكر الزمخشري في تفسيره لقوله – تعالى - : " وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ " الحجر : ٤ . ينظر الكشاف ٣ / ٣٩٨ / للزمخشري / تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد عوض / مكتبة العبيكان / الرياض / الطبعة الأولى / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م ، النحو الوافي ٢ / ٤٠٣ .

[2] دلائل الإعجاز / ٢١٤ ، ٢١٥ ، علم البديع ٢ / ١٧٦ / ١٧٧ / د / بسيوني فيود .

وإذا اعتبرنا جملة " ومعها صبي " صفة لـــ " امرأة " فقد جاءت الواو لـــشد لـــصوق الصفة بالموصوف ، كما يرى الزمخشري ، وبناء على ذلك ، وأيًّا كانت هذه الجملة بعد تلك الواو حـــــالًا كانت أو صفة فقد قامت بدور الربط بين الجملتين وضم الثانيـــة إلـــى الأولى .

ونُكِّرَ " صبيّ" هنا ؛ لأنه ليس المقصود صبيًا بعينه ، وإنما المقصود صبيًا فردًا مـــن جنس الصبيان دون تعيين أو تحديد لشخصه ؛ لأنه لم يذكر في القصة لذاته ، وإنما ذكر باعتباره مَثَلًا ونموذجًا لإظهار الكرامة التي أجراها الله – سبحانه وتعالى– على لسانه ، وهـــي نطقه وهـــو في سنّ الرضاع بما نطق به تثبيتًا لأمه ، وطمأنة لها .

واللام في " لها " للدلالة على الملك ، أي ملك المرأة المعبر عنهـــا بالـــضمير " هـــا " للصبي ، فهذا الصبي كان منكورًا ، وحينما دخلت اللام على مالكه – وهو أمه – عَـــرَفَ المخاطب أن أمه تملكه ، وأنه ابنها خاصة لا غيرها .

وعطفت جملة " تقاعست " على جملة " " جاءت امرأة ومعها صبي " بالفاء للدلالـــة على الترتيب والتعقيب ، أي أن تقاعس هذه المرأة وكراهتها وتوقفها عن اقتحام النار قد حدث بعد مجيئها ومعها صبيّها مباشرة ، وبلا مهلة زمنية ، وجاء مرتبًا عليه ، ومسببًا عنه ، فمجرد أن جاءت ومعها صبيها توقفت ولزمت مكانها ، وجبنت عن ولوج الأخدود من أجل صبيّها لا من أجل نفسها ، ورحمته وأشفقت عليه من الاحتراق بالنار ، وتلـــك هي عاطفة الأمومة التي أودعها الله – تبارك وتعالى – في قلب الأم .

و عبر النبي – ﷺ – هنا بالمصدر المؤول من " أن " والفعل " تقع " لدلالة المـــصدر المؤول على زمـــن الفعل ، وزمن الفعل هنا هو الاســـتقبال ؛ لأنـــه اقتـــرن بـــــ " أَنْ " الناصبة ، ونواصب المضارع تُمَحِّضه وتخلصه للاستقبال [٣] .

وفي التعبير بحرف الجر " في " الدال على الظرفية في جملة " تقاعست أن تقع فيها " دلالة على شدة انتقام هذا الملك الظالم الطاغية من أولئك المُوَحِّدين ، حيـــث لـــم يكـــن العذاب بسخونة النار ، ولا بدخانها ، ولا بإحراق الأيدي فقط مثلًا أو غيرها من أعـــضاء الجسد ، وإنما كان بدخول المُعَذَّب كله فيـــها بحيـــث تـــشتمل عليـــه اشـــتمال الظـــرف

---

[٣] جامع الدروس العربية ٢ / ١٦٨ / مصطفى الغلاييني / المكتبة العصرية / صيدا / بيروت / الطبعة الثامنة والثلاثون / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .

للمظروف ، وهكذا هو حال الملوك الطغاة والظلمة والجبابرة ، فهم لا يعرفون لغة الحوار ولا المناظرة ولا المجادلة ، وإنما يعرفون فقط لغة البطش والتعذيب ، ولا بأس عندهم في إبادة شعب بأكمله إبقاء على مذاهبهم الباطلة ، وحفاظًا على عقائدهم الفاسدة .

وعطفت جملة " قال لها الغلام : يا أُمَّهْ ، اصبري فإنك على الحق " على جملة " تقاعست أن تقع فيها " بالفاء للدلالة على أن قول الغلام لأمه إنما حدث بعد تقاعسها مباشرة وبلا مهلة زمنية ، ومرتبًا عليه ترتب النتيجة على المقدمة ، وجاء كذلك مسببًا عنه ، أي أن قول الصبي لأمه ما قال إنما جاء مسببًا عن تقاعسها ، وهكذا تبدو بلاغة الفاء في الأسلوب في ترابط أجزائه وتماسكها ، وتلاحم دلالاته وترتيبها .

واللام في " قال لها " هي لام التبليغ [1] ، واللام في " الغلام " للعهد الذكري لسبق ذكره قبل ذلك ، ولكن بلفظ " صبيّ " .

وذُكِرَ الصبي قبل ذلك في قوله – ﷺ – : " فأحموه فيها ، أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا ، حتى جاءت امرأة ومعها صبي " بلفظ " صَبِيّ " وذُكِرَ هنا في قوله – ﷺ – : " فقال لها الغلام : يا أُمَّهْ ، اصبري فإنك على الحق " بلفظ " الغلام " ؛ لأنه في المرة الأولى كان النظر إلى حالة الصِّبا التي تستثير المشاعر وتحرك العواطف نحوه شفقة عليه ورحمة به ، واستقطابًا للأنظار نحوه ؛ ليروا كيف كانت بشاعة وشناعة فعل هذا الملك الطاغية الجبّار ، وفي المرة الثانية كان النظر إلى إسناد هذا القول الحكيم البليغ إليه ، فناسب ذلك هنا أن يعبر عنه بلفظ الغلام ، وإن كان هو لم يصل إلى المرحلة التي من خلالها يستطيع النطق ، ولا سيّما بهذا الكلام البليغ ، ولكن أنطقه الله الذي أنطق كل شيء كرامة له وتثبيتًا لأمه ، هذا بالإضافة إلى ما في هذا التغاير من التفنن في الأسلوب ، والبراعة في التعبير .

وفي نطق هذا الصبي إشارة إلى أن الناس إذا تجردوا لله – سبحانه وتعالى – وأخلصوا الإيمان والطاعة والامتثال له فإن الله – عزّ وجلّ – يثبتهم بأشياء من عنده ما كانوا يتوقعونها ولا كانت تخطر ببالهم .

---

[1] لام التبليغ : هي اللام الجارة لاسم السامع لقول أو ما في معناه ، نحو : قلت له ، وأذِنْت له ، وفسَّرْت له . الجنى الداني / ٩٩ ، مغني اللبيب ١ / ٢٣١ .

والغرض من النداء في " يا أُمَّه " [1] التنبيه وجذب انتباه الأم وإيقاظ مشاعرها نحو الأمر الذي سيلقى إليها بعد ذلك ؛ لتتلقاه وهي منتبهة ، وتعيه وهي يقظة ، فيثبت ويستقر في قلبها ، ويتأكد لديها نظرًا لعظمه وأهميته ، يقول د / محمد أبو موسى : " فالنداء يوقظ النفس ، ويلفت الذهن ؛ لأنه طلب ودعاء ، فإذا ما جاء الأمر صادف نفسًا مهيأة يقظة فيقع منها موقع الإصابة ، حيث تتلقاه بحس واعٍ ، وذهن متنبه ، وهذا دليل على عناية الآمر بأمره ، ورغبته في إعداد النفوس لتلقيه " [2] .

ووَرَدَ هذا النداء في (دليل الفالحين) بصيغة الندبة هكذا " يا أُمّاهْ " [3] تفجعًا من هذا الغلام على أمه لما أصابها من الهمّ والخوف على صبيّها ، ثم ما سيصيبها هي وصبيّها بعد ذلك من الإحراق بالنار ، وامتداد الصوت بألف الندبة هنا يصور لنا الإحساس المفعم العميق الذي جاش وامتلأ به صدر ذلك الصبيّ شفقة على أمه ورأفة بها .

والغرض البلاغي من الأمر في قول الغلام لأمه : " اصبري ، فإنك على الحق " هو النصح والتوجيه والإرشاد لما هو خير ، وهو الثبات والصبر على العذاب الذي يؤول بعد ذلك إلى جزيل الثواب ، وذلك بدلًا من التقاعس والتوقف والتأخر ؛ لأن ذلك قد يُرْدِي الإنسان ويُوْرِده موارد الهلاك .

والفاء في جملة " فإنكِ على الحق " نَصّ في التعليل والسببية ، أي أن الجملة بعدها جاءت علة وسببًا للأمر بالصبر قبلها ، ووجود الفاء هنا – بالإضافة إلى دلالتها على التعليل – يجعل الجملة بعدها مترتبة على ما قبلها تَرَتُّب العلة على المعلول ، وهذه الجملة التعليلية مما يقوى به الأمر ؛ لأنها تحض وتحث عليه .

وأُكِّدَتْ جملة " إنكِ على الحق " الدالة على الحث على الأمر ، والداعية إلى امتثاله بـ " إن " ؛ " لأن توكيد هذه الجملة الدافعة إلى امتثال الأمر ، والحاثّة عليه ، والتي

---

[1] يا أمَّهْ : أصلها " يا أمِّي " ، قلبت ياء المتكلم تاء فصارت " يا أمَّتَ " ثم أبدلت هذه التاء المفتوحة هاء ساكنة للوقف عليها ، واختص النداء بذلك لكثرته في كلام العرب . أوضح المسالك ٤ / ٣١ ، ٣٢ / لابن هشام / تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الفكر / بيروت / لبنان / ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٢ م .

[2] دلالات التراكيب / ٢٥٦ .

[3] دليل الفالحين ١ / ١٧٠ .

تقوم من هذا الأمر مقام السبب والعلة أدخل في بلاغة العبارة وقوة إبانتها " [1] ، وذلك على حد قوله تعالى : " وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ " [2] . وقول بشار بن برد :

بَكِّرا صاحِبَيَّ قَبْلَ الهَجِيْرِ ... إِنَّ ذاكَ النجاحَ في التَّبْكِيْرِ [3]

وكأن الغلام لما رأى أمه تقاعست وشاهد عليها أمارات الكُرْه وعلامات التوقف والتردد كأنها تقدم رجلًا وتؤخر أخرى أمرها بالصبر والثبات ، وجاء هذا الأمر متضمنًا إشارات وإيماءات تثير في النفس تساؤلًا أسعفته جملة العلة بما يزيل هذا التردد ، ويجيب عن هذا التساؤل ، وجاءت " إن " المؤكِّدة لتواجه هذا التردد [4] .

و" إن " هنا تربط بين جملة العلة بعدها وجملة الأمر بعدها ، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني عنها في مثل هذا الموضع : " وذلك أنه هل شيء أَبْيَن في الفائدة ، وأَدَلّ على أن ليس سواءً دخولها وألا تدخل أنك ترى الجملة إذا هي دخلتْ ترتبط بما قبلها ، وتأتلف معه ، وتتحد به ، حتى كأن الكلامين قد أُفْرِغا إِفْراغًا واحدًا ، وكأن أحدهما قد سُبِكَ في الآخر ؟ " [5] .

وفي التعبير بحرف الجر " على " الدال على الاستعلاء دلالة على تمكن هذه الأم من الحق تَمَكُّن الراكب من المركوب ، وفي هذا إشارة إلى أن تقاعس الأم لم يكن شكًّا منها فيما هي عليه من الحق ، وإنما حدث ذلك منها خوفًا منها على صبيّها فقط ، وفي التعبير بهذا الحرف " على " هنا استعارة تبعية ، حيث شُبِّهَ الحق بمركوب بجامع التمكن ، ثم استعير لفظ " على " – وهو جزئية من جزئيات المشبه به – واسْتُعْمِلَ في المشبه للدلالة على التمكن من الوصف .

وعُرِّفَ " الحق " باللام للدلالة على العهد الذهني ، أي الحق المعهود في الذهن بين الصبيّ وأمه ، وهو الإيمان الواضح الذي لا غموض ولا لبس فيه ، وهو التوحيد

---

[1] دلالات التراكيب / ٢٥٦ .
[2] التوبة : ١٠٣ .
[3] ديوان بشار بن برد ٣ / ٢٠٣ / بحر الخفيف / شرح : محمد الطاهر ابن عاشور / مطبعة لجنة التأليف والترجمة / القاهرة / ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٧٥ م .
[4] خصائص التراكيب / ٨٤ ، علم البديع ١ / ٣٩ / د / بسيوني فيود .
[5] دلائل الإعجاز / ٣١٦ .

الخالص الذي لا رياء ولا سمعة فيه ، وكفى بذلك تثبيتًا وتطمينًا لهذه الأم الصابرة المحتسبة .

الخاتمة

وبعد ، فالبيان النبوي منبع فيّاض ، وهو أعلى وأرقى بيان بشري ، والبلاغة النبوية هي النموذج الأمثل في البلاغة البشرية ، ولا عجب فهي بلاغة من أوتي فصل الخطاب وجوامع الكلم ، وأفصح العرب والعجم ، وبلاغة من كان القرآن الكريم أستاذه ، وأدبه ربه فأحسن تأديبه .

وهو بيان يمتاز بالقوة والجزالة والجمال والجلاء ، والدقة والبراعة في التعبير ، والإيجاز في القول ، والوضوح في الفكرة ، والقدرة الرائعة والفائقة في التصوير ، والروعة في البيان ، والعذوبة في التنغيم ، والبعد عن التكلف والصنعة ، ولا عجب في ذلك فإن بلاغة النبي – ﷺ – من صميم رسالته ؛ لأنه أرسل إلى قوم فصحاء يقادون من ألسنتهم ؛ ولذا فلا بدَّ لهم من لسان أفصح وأبلغ من لسانهم ، يقول العَلّامة الأستاذ الكبير / أحمد حسن الزيات : " إن بلاغة الرسول – ﷺ – من صنع الله ، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه ، وتقصر مقاييسه عن مقياسه ، فنحن لا ندرك كنهه وإنما ندرك أثره ، ونحن لا نعلم إنشاءه ، وإنما نعلم خبره . وهل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ؟ وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة ؟ وهل يجد فى نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلالة والروعة ؟ إن البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية ، وإذا كان كلام الله كتاب البيان المعجز ، فإن كلام الرسول – ﷺ – سنة هذا البيان ، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول ، فإن البلاغة صفة محمد – ﷺ – وحده" [1].

وها هو (البيان النبوي في حديث الغلام والراهب والساحر) قد عشت معه رَدَحًا من عمري أخذت أجول فيه ببصري ، وأقلب فيه فكري ، وأتفاعل مع مدلولاته ، وأقف مع كل لفظة وجملة وأسلوب ، وأبحث وأتأمل مبرزًا ما في ذلك من وجوه بلاغية ، وموضحًا

---

[1] وحى الرسالة ٣ / ١٠٥ / لأحمد حسن الزيات / دار الثقافة / بيروت / لبنان / الطبعة السادسة / ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

ما انطوى عليه من أسرار ولطائف بيانية ، حتى يَسَّرَ الله لي إتمام هذا العمل على هذا الوجه ، وبعد هذا الشوط الكبير والجولة الممتعة التي قضيتها مع هذا البحث فقد استقر وقد أسفر عن عدة نتائج وتوصيات من أهمها ما يلي :

١ – أن أسلوب البيان النبوي مطبوع وبعيد عن التكلف والصنعة ، ولا سيما البديع فلم أعثر عليه إلا نادرًا ، وقد ورد عفوًا ومطبوعًا ، ومن ذلك الطباق في قول الغلام لكلٍّ من الجليس والملك : " إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله " ، والجناس في قوله – ﷺ – حكاية عن فعل الملك مع كلٍّ من الراهب والجليس : " فشقّه حتى وقع شِقّاه " ، والاحتباك في قول الملك للأصحاب الذين أرسلهم مع الغلام ليقتلوه : " فإن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه " .

٢ – أن أسلوب النبي – ﷺ – بديع النظم ، حسن السبك ، جيد الرصف ، فائق اللفظ ، رائق المعنى ، مركّز وبليغ العبارة ، واضح الهدف ، مُكَثَّف الدلالة ، جامع بين الإيحاء والتشويق والإثارة وإقناع العقل وإمتاع الوجدان ، خالٍ من الحشو وكل ما لا يفيد الفكرة ولا يخدم المضمون ، فهو أسلوب يتسم بالاستيفاء للفكرة ، والقصد والإيجاز في العبارة ، والدقة والبراعة في التصوير ، والإثارة والتشويق للمتلقي ؛ ولذا فإني أُوْصِي الباحثين بالالتفات شَطْر دراسة الحديث النبوي تنمية لملكاتهم ، وتربية لأذواقهم ، وتقوية لحسهم البلاغي ، واستلهامًا للَّطائف والفوائد والعبر والعظات وتجليتها للناس بطريقة واضحة وأسلوب جذّاب ومقنع وممتع وشائق .

٣ – اشتمال القصة في هذا الحديث على العديد من الحكم والفوائد واللطائف المستوحاة والمستلهمة من السياق ، كإظهار الكرامات للأولياء الذين خلصت نياتهم ، وصلحت أعمالهم ، وصفت قلوبهم ، وكذلك تثبيت الله ونصره – عزّ وجلّ – للمؤمنين ، وزلزلة وتقويض عروش الكفرة والملحدين ، هذا بالإضافة إلى أن القصة النبوية كما ذكر الدكتور / محمد رجب البيومي لم تتملق الغرائز بالحديث عن موضوع رخيص ، بل ارتفعت بالنفوس إلى عوالم الخير والحق والصدق والجمال ، وفي ذلك إقناع العقل وإمتاع الوجدان [١] ؛ ولذا فما أحرى أن يُنَشَّأ الأبناء والشباب على هذا القصص الواقعي

---

[١] البيان النبوي / ١٤٢ / دار الوفاء / المنصورة / الطبعة الأولى / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

الهادف الرفيع بعيدًا عن الخيالات الشاردة الشاطحة والخرافات الكاذبة الفادحة التي لا تفيد سوى صداع الرأس وضياع الوقت فيما لا يسمن ولا يغني من جوع .

٤ – لحروف العطف دور كبير في بلاغة أسلوب هذه القصة ولا سيما الفاء عاطفة كانت أو استئنافية أوجوابية ، وهي في كل ذلك لا تخلو من الربط لأجزاء الكلام ، فقد استخدمها النبي – ﷺ – في هذا الحديث ثلاثًا وتسعين مرة ، وقد حَقّقت دورًا كبيرًا في بلاغة هذه القصة من حيث ترتيب أحداثها وتسلسلها بعضها بعد بعض بلا مهلة ، ووصل رأس الحدث الثاني بآخر الحدث الأول ، وتَرَتُّب بعضها على بعض تَرَتُّبَ النتيجة على المقدمة والمسبب على السبب ، وأيضًا من حيث ربط أجزاء الأسلوب وتشابكها بعضها ببعض ، وكذلك من حيث طَيّها لكثير من الأحداث غير الجوهرية ، فجعلت العبارة مركّزة ومكثّفة ، الأمر الذي جعل القصة بأحداثها المختلفة والمتعددة " كأنها نَفَس واحد ، وحَدَث واحد ، وحكاية واحدة ... تضامّت وتلاصقت وتشابكت حتى صارت شيئًا واحدًا " [١] .

٥ – أن الشخصيّات في القصة أحيانًا تذكر بأسمائها ؛ لأنها مقصودة بعينها وذاتها ، وأحيانًا أخرى تذكر بصفاتها التي تخدم طبيعة أدوارها ، واعتبارها مَثَلًا ورمزًا ونموذجًا لما تقوم به كما هو الحال هنا في شخصيّات هذه القصة ؛ لأن المقصود بالعناية هنا هو الحدث والموقف .

وبعد هذا التطواف وتلك الجولة مع ذلك الحديث الذي بذلت جهدي فيه – وهو جهد المقل – دون أن آلو أو أدّخر وسعًا في إبراز ما تضمنه من وجوه بلاغية ، وما انطوى عليه من أسرار بيانية ، وما اشتمل عليه من بدائع وفوائد ودروس وقِيَم ، فلا أدعي أني أبرزت كل ما تضمنه واشتمل عليه ، فما زال الحديث يفضي بالغرائب والعجائب ويفيض بالأسرار والعوائد ، وهذا شأن البيان الخالد ، ولا سيما البيان النبوي ، ولله درّ المتنبي حيث قال :

إذا لَمْ تُشاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِياتِها ... وأَعْضائِها فالحُسْنُ عَنْكَ مَغَيَّبُ [٢]

---

[١] شرح أحاديث من صحيح البخاري / ١٤٩ .

[٢] شرح ديوان المتنبي ١ / ٣٠٤ / بحر الطويل .

وأخيرًا أدعو الله – السميع العليم – أن يجعل هذا العمل صالحًا ، ويجعل قـصدي بـه وَجْهَه خالصًا ، ويرزقه القبول الحسن في الدنيا والآخرة ، والحمـد لله رب العـالمين ، وصلّى الله وسلَّم على نبيِّنا وآله وصحبه أجمعين .

فهرس المصادر والمراجع

١ – الأزهية في علم الحروف / لعلي بن محمد الهروي / تحقيق : عبد المعين الملوحي / مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق / الطبعة الثانية / ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م .

٢ – الاستفهام بين النحو والبلاغة / د / طاهر قطبي / مركز الحضارة العربية / القاهرة / الطبعة الأولى / ٢٠٠٨ م .

٣ – الاستيعاب / لابن عبد البر / تحقيق : علي محمد البجاوي / دار الجيل / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م .

٤ – أسد الغابة / لابن الأثير / تحقيق : علي محمد عوض ، عادل أحمد عبد الموجود / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م .

٥ – أسرار الفصل والوصل / د / صبّاح عبيد دراز / مطبعة الأمانة / القاهرة / الطبعة الأولى/١٤٠٦ هـ–١٩٨٦م .

٦ – الإصابة / لابن حجر / تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد عوض / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٥ هـ .

٧ – إعجاز القرآن/ للرافعي/ تحقيق: د / درويش الجويدي/ المكتبة العصرية/صيدا / بيروت/١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م.

٨ – الأعلام / للزركلي / دار العلم للملايين / الطبعة الخامسة عشرة / ٢٠٠٢ م .

٩ – إكمال إكمال المعلم / للأبيّ / مطبوع بذيل صحيح مسلم / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان/ بدون تاريخ.

١٠ – إكمال المعلم بفوائد مسلم / للقاضي عياض / تحقيق : د / يحيى إسماعيل / دار الوفاء / المنصورة / الطبعة الأولى / ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م .

١١– أوضح المسالك / لابن هشام / تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الفكر / بيروت / لبنان / ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٢ م .

١٢ – الإيضاح / للخطيب القزويني / تحقيق : د / محمد عبد المنعم خفاجي ، د / عبد العزيز شرف / دار الكتاب المصري / القاهرة ، دار الكتاب اللبناني / بيروت / الطبعة السادسة / ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ .

١٣ – بحوث المطابقة لمقتضى الحال / د / علي البدري / المكتبة الحسينية / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م .
١٤ – بدائع الفوائد / لابن القيم / تحقيق : محمد عبد القادر الفاضلي ، د / أحمد عوض أبو الشباب / المكتبة العصرية / صيدا / بيروت / ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م .
١٥ – البلاغة العالية (علم المعاني)/ عبد المتعال الصعيدي/ مكتبة الآداب ، الطبعة الثانية/ ١٤١١ هـ–١٩٩١م .
١٦ – البيان النبوي / دار الوفاء / المنصورة / الطبعة الأولى / ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .
١٧ – تاج العروس / للزبيدي / تحقيق : عبد الستار أحمد فراج /مطبعة حكومة الكويت / ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥م .
١٨ – التحرير والتنوير / لابن عاشور / الدار التونسية / تونس / ١٩٨٤ م .
١٩– تحفة الأحوذي / لمحمد بن عبد الرحمن الأحوذي / تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان / دار الفكر / بيروت / بدون تاريخ .
٢٠ – التصوير الفني في الحديث النبوي / د / محمد بن لطفي الصبّاغ / المكتب الإسلامي / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م .
٢١– تفسير ابن كثير/ لابن كثير / تحقيق : سامي محمد سلامة / دار طيبة / الرياض / الطبعة الثانية /١٤٢٠ هـ–١٩٩٩م .
٢٢– جامع الدروس العربية / مصطفى الغلاييني / المكتبة العصرية / صيدا / بيروت / الطبعة الثامنة والثلاثون / ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م .
٢٣ – الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي / تحقيق : د / عبد الله بن عبد المحسن التركي ، و آخرين / مؤسسة الرسالة / الطبعة الأولى / ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م .
٢٤ – الجنى الداني / للمرادي / تحقيق : د / فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل / دار الآفاق الجديدة / بيروت / الطبعة الثانية / ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م .
٢٥ – جواهر البلاغة / للهاشمي / تحقيق : د / يوسف الصميلي / المكتبة العصرية / صيدا / بيروت /١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م .

٢٦ – الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية / د / كمال عز الدين / دار اقـرأ / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤٠٤ – ١٩٨٤ م .
٢٧ – خصائص التراكيب / د / محمد أبو موسى / مكتبة وهبـة / القـاهرة / الطبعـة الرابعة / ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م .
٢٨ – دراسات منهجية في علم البديع / د / الشحات محمد أبو سـتيت / دار خفـاجي / الطبعة الأولى / قليوبية / ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤م .
٢٩ – درة الغواص / للحريري / تحقيق : عبد الحفيظ القرني / دار الجيل / بيـروت ، مكتبة التراث الإسلامي / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م .
٣٠ – دلائل الإعجاز / تحقيق : محمود محمد شاكر / مطبعة المـدني / القـاهرة ، دار المدني / جدة / الطبعة الثالثة / ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م .
٣١ – دلالات التراكيب / د / محمد أبو موسى / مكتبة وهبة / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م .
٣٢ – دليل الفالحين / لابن علان / تحقيق : خليل مأمون شيحا / دار المعرفة / بيـروت / لبنان / الطبعة الرابعة / ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م .
٣٣ – ديوان أبي نواس / تحقيق / ايفالد فاغنر / فرانز شتاينر / فيـسبادن / ألمانيـا / ١٣٢٩ هـ – ١٩٧٢ .
٣٤ – ديوان بشار بن برد / شرح : محمد الطاهر ابن عاشور / مطبعة لجنـة التـأليف والترجمة / القاهرة / ١٣٧٦ هـ – ١٩٧٥ م .
٣٥ – الرحيق المختوم / للمباركفوري / وزارة الأوقاف والشؤون الإسـلامية / قطـر / ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م .
٣٦ – رصف المباني / للمالقي / تحقيق : د / أحمد محمد الخراط / مجمع اللغة العربية بدمشق / بدون تاريخ .
٣٧ – زهر الربيع / للشيخ : أحمد الحملاوي / المطبعة الكبرى الأميرية / بولاق / مصر / الطبعة الأولى / ١٣٢٣ هـ – ١٩٠٥ م .
٣٨ – السنن الكبرى / للنسائي / تحقيق : شعيب الأرنؤوط / مؤسسة الرسالة / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م .

٣٩ – سيرة ابن هشام / لابن هشام / تحقيق : مصطفى السقا ومن معه / مطبعة الحلبي / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٣٧٥ هـ – ١٩٥٥م .
٤٠ – شرح أحاديث من صحيح البخاري / د / محمد أبو موسى / مكتبة وهبة / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠ م .
٤١ – شرح ديوان المتنبي / للبرقوقي / دار الكتاب العربي/ بيروت / لبنان / الطبعة الثانية /١٤٠٧ هـ–١٩٨٦م .
٤٢ – شرح رياض الصالحين / لابن عثيمين / مدار الوطن / الرياض / ١٤٢٦ هـ .
٤٣ – شرح عقود الجمان / للسيوطي / دار الفكر / بيروت / لبنان / بدون تاريخ .
٤٤ – شرح الكافية / للرضي / تحقيق : د / يحيى بشير صبري / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / الرياض / الطبعة الأولى / ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦.
٤٥ – شرح النووي لصحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي / بيروت / الطبعة الثانية / ١٣٩٢ هـ .
٤٦ – صحيح ابن حبان / لابن حبان / تحقيق شعيب الأرنؤوط / مؤسسة الرسالة / بيروت / الطبعة الثانية / ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م .
٤٧ – صحيح مسلم / مسلم بن الحجاج النيسابوري / تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي / بيروت / بدون تاريخ .
٤٨ – صفة الصفوة / لابن الجوزي / تحقيق : أحمد علي / دار الحديث / القاهرة / ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م .
٤٩ – طِراز الحُلَّة وشِفاء الغُلَّة / تحقيق : د / رجاء السيد الجوهري / مؤسسة الثقافة الجامعية / الإسكندرية / ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م .
٥٠ – عارضة الأحوذي/ لابن العربي المالكي / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان/ بدون تاريخ .
٥١ – علم البديع / د / بسيوني فيود / مؤسسة المختار / القاهرة ، دار المعالم الثقافية / الأحساء / الطبعة الثانية / ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨م .
٥٢ – علم البديع / د / عبد العزيز عتيق / دار النهضة / بيروت / لبنان / بدون تاريخ .

٥٣ – علم المعاني / د / بسيوني فيود / مؤسسة المختار القاهرة ، دار المعالم الثقافية / الأحساء / الطبعة الأولى / ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م .
٥٤ – فتح المنعم / د / موسى شاهين لاشين / دار الشروق / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .
٥٥ – الفروق اللغوية/ لأبي هلال العسكري/تحقيق: محمد إبراهيم سليم/ دار العلم والثقافة/ القاهرة (بدون تاريخ).
٥٦ – الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القران / د / محمد الشايع / مكتبة العبيكان / الرياض / الطبعة الأولى / ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م .
٥٧ – القاموس المحيط / للفيروزآبادي / دار الفكر / بيروت / لبنان / ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م
٥٨ – القصص في الحديث النبوي / د / محمد بن حسن الزير / الرياض / الطبعة الرابعة / ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.
٥٩ – الكشاف / للزمخشري / تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد عوض / مكتبة العبيكان / الرياض / الطبعة الأولى / ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م .
٦٠ – لسان العرب /لابن منظور / دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية /١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م .
٦١ – المستدرك على الصحيحين / للحاكم النيسابوري / تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م
٦٢ – معترك الأقران / للسيوطي / تحقيق : أحمد شمس الدين / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .
٦٣ – معجم المصطلحات البلاغية وتطورها / د / أحمد مطلوب / مكتبة لبنان / بيروت / لبنان / ٢٠٠٧ م .
٦٤ – المعجم الوسيط / مجمع اللغة العربية / مكتبة الشروق الدولية / الطبعة الرابعة / ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م .
٦٥ – المعلم بفوائد مسلم / لأبي عبد الله المازْري / تحقيق : محمد الشاذلي النيفر / بيت الحكمة / تونس / الطبعة الأولى / ١٩٩١ .

٦٦ – مغني اللبيب / لابن هشام / تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الطلائع / القاهرة / ٢٠٠٥ م .
٦٧ – المفردات في غريب القرآن / للراغب الأصفهاني / تحقيق : مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز / مكتبة نزار مصطفى الباز / مكة المكرمة / بدون تاريخ .
٦٨ – المفهم / للقرطبي / تحقيق : محيي الدين مستو ، وآخرين / دار ابن كثير / دمشق / بيروت ، دار الكلم الطيب / دمشق / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م .
٦٩ – مقاييس اللغة / لابن فارس / تحقيق : إبراهيم شمس الدين / دار الكتب العلمية / بيروت/ لبنان/ الطبعة الأولى /١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .
٧٠ – مُلْحة الإعراب / مطبعة السعادة / مصر / الطبعة الأولى / ١٣٢٥ هـ – ١٩٠٧ م .
٧١ – من بلاغة القرآن / د / أحمد بدوي / نهضة مصر / الطبعة الثالثة / ٢٠٠٤ .
٧٢ – النحو الوافي / د / عباس حسن / دار المعارف / مصر / الطبعة الثالثة / بدون تاريخ .
٧٣ – النهاية في غريب الحديث والأثر / لابن الأثير / تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ، محمود محمد الطناحي / المكتبة العلمية / بيروت / ١٣٩٩ – ١٩٧٩ م .